

الباب الرابع والعشرون

اليقظة الهلنستية

الفصل الأول

مصر الرومانية

كان خليقاً بمصر أن تكون أسعد بلدان الأرض قاطبة ، لأن النيل يرويها ويغذيها ، ولأنها أكثر بلاد البحر الأبيض المتوسط قدرة على الاكتفاء بخيراتها — فهي غنية بالحلب والفاكهة ، تنتج أرضها ثلاث غلات في العام ، ولم يكن يعلو عليها بلد آخر في صناعاتها ، وكانت تصدر الغلات والمصنوعات إلى مائة قطر وقطر ، وقلما كان يزعجها ويقلق بالها حرب خارجية أو أهلية . ولكن يبدو أن « المصريين » برغم هذه الأسباب — أو لعلمهم لهذه الأسباب — « لم ينعموا بالحرية يوماً واحداً في تاريخهم كلهم »^(١) على حد قول يوسفوس . ذلك أن ثروتهم كانت تغزى بهم الطغاة أو الفاتحين واحداً في إثر واحد مدى خمسين قرناً من الزمان كانوا فيها يستسلمون لأولئك الطغاة والفاثحين (*).

(*) هذه إحدى الأكاذيب التي يرويها المؤرخون دون تحقيق والتي يكذبها تاريخ مصر تكديبا قاطعاً ، فلقد نعمت مصر في جميع أدوار تاريخها بعصور من الحرية طوال ؛ وإذا كانت قد خضعت في بعض أيامها لغيرها من الدول فإن معظم الأمم لم تسلم من هذا الخضوع ، وقد امتصت مصر الفاتحين فصرتهم أو أخرجتهم من أرضها واحتفظت بطابعها مع ما يقتضيه الزمن من تطور لا يد منه . وإذا كانت قد حكمها ملوك أو حكام وفد آباؤهم عليها من خارجها فإن هذا لا ينقص من استقلالها ، وقد حدث مثله في بلاد العالم . وليس صحيحاً أيضاً أنهم مستسلمون إلى الحد الذي يصفه المؤرخ فلطالما نازوا في جميع أدوار التاريخ على الطغاة والفاثحين . (المترجم)



(شكل - ٦) صورة نساء

ولم تكن رومة تعد مصر ولاية تابعة لها ، بل كانت تعدها من أملاك الإمبراطور نفسه ، وكان يحكمها حاكم مسئول أمامه وحده . وكان موظفون من اليونان المتمصرين يديرون أقسامها الثلاثة - مصر السفلى ، ومصر الوسطى ، ومصر العليا ، ومقاطعاتها الست والثلاثين ، وبقيت اللغة اليونانية في ذلك العهد هي اللغة الرسمية - ولم تبذل محاولة ما لتحضير السكان ، فقد كانت وظيفة مصر في الإمبراطورية أن تكون المورد الذي تستمد منه رومة ما يلزمها من الحبوب . ولهذا السبب انتزعت من الكهنة مساحات واسعة من الأرض وأعطيت للممولين الرومان أو الإسكندرانيين ، وجعلت ضياعاً واسعاً يعمل فيها الفلاحون ويستغلون بلا رحمة . وظلت الرأسمالية الحكومية كما كانت في عهد البطالمة ، وإن كانت في صورة أخف من عهدها السابق ؛ لقد كانت تنظم كل خطوة من خطوات الأعمال الزراعية وتشرف على تنفيذها : فكان موظفون حكوميون مطردو الزيادة يعينون ما يزرع من المحاصيل ، ومقدار ما يزرع منها ، ويوزعون البذور على الزراع في كل عام ، ويستولون على المحصولات ويودعونها في مخازن حكومية (thesauroi) ، ويصدرون منها حصة رومة ، ويقتطعون الضرائب منها عينا ، ويبيعون ما يتبقى بعد ذلك في السوق . وكان القمح والكتان محتكرين للحكومة من البذر إلى البيع ؛ وكذلك كان شأن الطوب ، والروائح العظرية وزيت السمنسم في القيوم إن لم يكن في غيرها من الأقاليم ، أما غير هذه من الميادين الاقتصادية فكان يسمح فيها بمشروعات الاستغلال الخاصة ، على أن يكون هذا الاستغلال خاضعاً لأنظمة دقيقة شاملة . وكانت مصادر الثروة المعدنية كلها ملكاً للدولة ، وكان قطع الرخام واستخراج الحجارة الكريمة امتيازاً خاصاً للحكومة .

واتسع نطاق الصناعات المنزلية فانتشرت في المدن - وكان قد مضى على قيامها في مصر زمن طويل ، فاشتهرت بهامدائن بطليموئيس Ptolemais ، ومنفيس ، وطبية ، وأكسبرهنتكس Oxyrhynchus ، وصان ، وبسطة ، ونقراطيس ،

وهلبوبوليس (عين شمس) ؛ وكانت هذه الصناعات في الإسكندرية الموردة
الذى تعتمد عليه نصف حياة العاصمة الصاخبة . ويبدو أن صناعة الورق
كانت قد بلغت وقتئذ المرحلة الرأسمالية ، فإن استرابون يحدثنا أن أصحاب
مزارع البردى حددوا محصوله ليرفعوا سعره (٣) . وكان الكهنة يقيمون
المصانع في حرم الهياكل ، ويخرجون فيها نسيجاً رقيقاً من التيل ، يصنعون
منه ملابسهم ، ويبيعون بعضه في الأسواق . وقلما كان يوجد أرقاء في مصر
يعملون في غير الخدمات المنزلية ، لأن العمال « الأحرار » لم يكونوا يؤجرون
أكثر مما يكفي لستر عورتهم وسد رمقهم . وكان هؤلاء العمال يضربون
عن العمل (anachoresis) في بعض الأحيان - فكانوا يمتنعون عنه ويحتمون
بالهياكل حتى يخرجوا منها بتأثير الجوع أو الألفاظ المعسولة . وكان يحدث
أحياناً أن ترفع الأجور ، فترتفع الأثمان ، وتعود الأمور كما كانت من قبل .
وكان يسمح بإنشاء النقابات الطائفية ، ولكنها كانت في الأغلب الأعم خاصة
بالنجار ومدبوري الأعمال ، وكانت الحكومة تستخدمها في جباية الضرائب
وفي تنظيم أعمال السخرة كإقامة السدود ، وحفر الترع وتطهيرها ، وإقامة
المباني العامة .

وكانت التجارة الداخلية نشطة ولكنها بطيئة . فقد كانت الطرق رديئة ؛
وكانت وسائل النقل البرى هي الجمالين ، والحمير ، والجمال - التى حلت وقتئذ
محل الخيل للجر والحمل في أفريقية . وكان جزء كبير من التجارة الداخلية ينقل
نهر النيل أو القنوات . وكانت قناة كبرى يبلغ عرضها مائة وخمسين قدماً وتمت
في عهد تراچان ، تربط البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الهندي عن طريق النيل
والبحر الأحمر . فكانت السفن تخرج في كل يوم من الثغور الواتعة على
هذا البحر مثل أرسنوفى ، وميوس هرموس Muos Hormos وبرنيلس
في طريقها إلى أفريقية أو الهند . وكان النظام المصرى الذى يمول الإنتاج
والتجارة خاضعاً بأكمله للرقابة الحكومية ، وكان في حاضرة كل إقليم

مصرف للدولة ، يتسلم الضرائب ، وتودع فيه الأموال العامة . وكانت القروض تعقد للزراع وتشجيع الصناعة والتجارة والأعمال المالية ، تقرضها الحكومة أو الكهنة من خزائن الهياكل ، أو هيئات الإقراض غير الحكومية^(٤) . وكانت الضرائب تفرض على جميع المنتجات ، والعمليات الاقتصادية ، والبيع ، والإصدار ، والاستيراد ، بل وعلى القبور ودفن الأموات ؛ وكانت فروض إضافية تقرر من حين إلى حين ، وتجبى عينا من الفقراء أو خدمات من الأغنياء : وكانت البلاد - أو كان سادتها - من عهد أغسطس إلى تراچان في رخاء ؛ ثم أخذ هذا الرخاء ، بعد أن وصل إلى ذروته في ذلك العهد ، يفارقها بتأثير الحراج الذي لم يكن يعرف له حد ، والضرائب الفادحة ، وما يعقبهما من كساد ونضوب في موارد البلاد ، وما يؤدي إليه الاقتصاد المجهد من تراخ وإهمال .

وبقيت مصر في خارج الإسكندرية ونقراطيس محتفظة بمصريتها عابسة صامته ، وقلما اصطبغ فيها شيء بالصبغة الرومانية بعيداً عن مصاب النيل ؛ وحتى مدينة الإسكندرية نفسها ، التي كانت أعظم المدائن اليونانية ، أخذت في القرن الثاني بعد الميلاد تصطبغ بصبغة الحواضر الشرقية في أخلاق أهلها ولغاتهم وفي جوها الشرقي . وكان يسكن عاصمة مصر ٨٠٠٠٠٠ من جميع سكان البلاد البالغ عددهم ٨٠٥٠٠٠٠^(٥) (وكان عدد سكانها في عام ١٩٣٠ نحو ٥٧٣٠٠٠) ، ولم يكن يزيد عليها في عدد السكان سوى رومة نفسها . أما من حيث الصناعة والتجارة فقد كانت أولى المدن في الإمبراطورية . وقد ورد في خطاب يعزى إلى هديران - وإن كنا نشك في صحة نسبته إليه - أن كل شخص في الإسكندرية يعمل ، وأن لكل إنسان فيها حرفة ، وحتى العرج والعمى يجدون لهم عملاً فيها^(٦) . وكان من بين مئات الصناعات القائمة في المدينة صناعة الزجاج ، والورق ، ونسج الكتان . وكانت هذه المصنوعات موفورة الإنتاج ، وكانت الإسكندرية مركز صناعة الكساء والأزياء العصرية المستخدمة في ذلك الوقت ، فكانت

هى التى تضع طراز الملابس وهى التى تصنعها . وكان لمرفتها العظيم تسعة
أرصيفية ، يخرج منها أسطولها التجارى ليمخر عباب عدة بحار . وكانت
المدينة فوق ذلك مركزاً للسياح ، فيها الفنادق ، والأدلاء ، والمترجون .
لاستقبال الزائرين القادمين إليها لمشاهدة الأهرام والهياكل الفخمة فى طيبة .
وكان شارعها الرئيسى يبلغ عرضه سبعا وستين قدما ، وتقوم على جانبيه
العمد ، والبواكى ، والحوانيت المغرية تعرض أجل التحف التى تنتجها .
للصناعات القديمة . وكان عند كثير من ملتقى الشوارع ميادين واسعة أو
دوائر يسمونها الطرق « الواسعة » (Plateai) - ومنها اشتقت الكلمة الإيطالية
Piazza ، والكلمتان الإنجليزيةتان Plaza ، Place . وكانت مباني ذات
روعة تزين الشوارع الرئيسية - دار تمثيل كبرى ، ومصفق ، وهياكل
للسيدن ، وقصر ، وزحل ، وسرابيوم أو هيكل لسرابيس ذات
الصيت ، وطائفة من مباني الجامعة التى اشتهرت فى العالم كله باسم المتحف
(الميوزيوم Museum أو بيت ربات الفن Muses) . وكانت المدينة
مقسمة خمسة أقسام ، خص قسم منها بأكمله تقريبا بقصور البطلمة ،
وحداتهم ، ومباني الإدارات الحكومية ، وكان يقيم فيه فى العصر الرومانى
حاكم المدينة . وفى هذا القسم دفنت جثة الإسكندر الأكبر مؤسس المدينة
فى ضريح جميل الشكل ، وقد وضعت فى تابوت من الزجاج وحفظت
من البلى فى العسل .

وكان سكان المدينة خليطا من اليونان ، والمصريين ، واليهود ،
والإيطاليين والعرب ، والفينيقيين ، والفرس ، والأحباش ، والسوريين ،
والليبيين ، والقلبيقيين والسكودزيين ، والهنود ، والنوبيين ، ومن
شعوب البحر الأبيض كلهم تقريبا . وكان يتألف منهم جميعا خليط
سريع الذوبان بعضه فى بعض ، سريع الالتهاب أيضا ، متشاحن ،
سيئ النظام ، عظيم المهارة والذكاء ، فكاه غير محتشم ، لا يستحى من
فحش القول ، متشكك ، مخرف ، غير مستمسك بالخلق الكريم ، مرح ،
شديد الوجد بالتمثيل ، والموسيقى ، والألعاب العامة . ويصف ديوكريستوم

الحياة في المدينة بأنها « قصف دائم . . . لراقصات ، والمصفرين ، والقتلة » (٨) . وكانت القنوات غاصة على الدوام بمحبي المرح والطرب ، يستقلون القوارب الصغيرة أثناء الليل ، يقطعون فيها مسافة الأميال الخمسة التي توصلهم إلى كنوبس Canopus ضاحتها المليئة بالملاهي وأسباب التسلية . وكانت تقام فيها مباريات موسيقية لا تقل عن سباق الخيل لإثارة للمشاعر والتصفيق والضجيج .

وإذا جاز لنا أن نصدق فيلو (٩) فيما يقوله عن سكان المدينة ، فقد كان أربعون في المائة منهم من اليهود ، وكانت كثرة يهود الإسكندرية تعمل في الصناعة والتجارة ، وتعيش في فقر مدقع (١٠) ؛ وكان كثيرون منهم تجاراً ، وعدد قليل منهم مرابين ، وبلغ بعضهم من الثراء درجة استطاعوا بها أن يحصلوا على مناصب يحسدون عليها في الحكومة ؛ وبعد أن كانوا في أول الأمر لا يشغلون إلا خمس مساحة المدينة أصبحوا في الوقت الذي نتحدث عنه يشغلون خمسها . وكانوا يحاكمون بمقتضى قوانينهم الخاصة على أيدي كبارائهم ؛ وأيدت رومة الامتيازات التي منحها إياهم البطالمة والتي يحق لهم بمقتضاها أن يتجاهلوا أى قانون يتعارض مع أوامر دينهم . وكانوا يفخرون بكنيستهم المركزي الفخم وهو باسلفا ذات عمد ، بلغ من الاتساع حداً كان لا بد معه من استخدام نظام للإشارات يضمن بها استجابة المصلين الذين لا يستطيعون - لبعدهم عن المحراب - أن يسمعوا أصوات الحاخام (١١) . ويستفاد من أقوال يوسفوس أن الحياة الأخلاقية لليهود الإسكندرية كانت مضرب المثل في الاستقامة إذا قيست إلى حياة السكان « الوثنيين » الشهوانية الطليقة (١٢) . وكانت لهم ثقافة ذهنية نشيطة ، كما كان لهم حظ كبير من الدراسات الفلسفية والتاريخية والعلمية في ذلك الوقت . وكانت المدينة تضطرب من حين إلى حين بالعداء العنصرى ؛ وشاهد ذلك أننا نجد في النبذة التي كتبها يوسفوس ضد أيورود (وهو زعيم معاد للسامية) جميع الأسباب ، والحجج ، والخرافات التي تمكّر العلاقات بين اليهود وغيرهم من أصحاب الأديان الأخرى في

هذه الأيام . وقد حدث في عام ٣٨ م . أن هاجم الغوغاء من اليونان معابد اليهود وأصروا على أن يضعوا في كل منها تمثالا لكليجيولا ليتخذوه إلهاً . كذلك حرم أفليوس فلاكس حاكم المدينة الروماني اليهود من حق المواطنة الإسكندرية وأمر من كانوا يعيشون منهم خارج القسم اليهودي الأصلي أن يعودوا إليه في خلال بضعة أيام من صدور الأمر ، فلما انقضى الأجل المحدد لهذه العودة أحرق الغوغاء اليونان أربعائة من بيوت اليهود ، وقتلوا من كان منهم خارج ذلك الحى ، وقبض على ثمانية وثلاثين من أعضاء الجروزيا (مجلس الشيوخ) اليهودي ، وجلبوا علناً في إحدى دور التمثيل ، وطرد آلاف من اليهود من بيوتهم أو من أعمالهم أو حرّروا ما كانوا يدخرونه من أموالهم . وعرض الحاكم الذي خلف فلاكس أمرهم على الإمبراطور ، وسافر إلى رومة (عام ٤٠ م) وفدان مستقلان - أحدهما يتألف من خمسة من اليونان والآخر من خمسة من اليهود - ليعرض كل منهما قضيته على كليجيولا ، ولكن الإمبراطور قضى نحوه قبل أن يصدر حكمه ، فلما جلس كلوديوس على العرش أعاد إلى يهود الإسكندرية ما كان لهم من حقوق ، وأكد لهم مواظبتهم في المدينة ، وأصدر أمراً مشدداً إلى الطائفتين المتنازعتين ألا تعكرا صفو السلام .

الفصل الثاني

فيلو

كان رئيس الوفد اليهودى إلى كليجولا هو الفيلسوف فيلو ، وكان أخوه مدير تجارة الصادر اليهودية فى الإسكندرية . ويصفه يوسيبوس Eusebius بأنه من أسرة عريقة من رجال الدين (١٢) . ولا نكاد نعرف شيئاً غير هذا عن حياته ولكن تقواه وكرم أخلاقه يظهران واضحين فى المؤلفات الكثيرة التى وضعها فى شرح الدين اليهودى للعالم اليونانى . وقد نشأ الرجل فى جو دينى ، فكان شديد الوفاء لشعبه ، ولكنه افتتن بالفلسفة اليونانية ، فجعل هدفه فى الحياة أن يوفق بين الكتاب المقدس وعادات اليهود من جهة ، والآراء اليونانية وبخاصة فلسفة أفلاطون « أقدم القديسين » من جهة أخرى . ولكى يصل إلى غرضه هذا لجأ إلى المبدأ القائل إن جميع الحوادث ، والأخلاق ، والعقائد ، والشرائع المنصوص عليها فى العهد القديم ذات معنيين أحدهما مجازى والآخر حرفى ، وإنها ترمز إلى حقائق أخلاقية أو فلسفية ؛ وكان فى وسعه بهذه الطريقة أن يبرهن على صحة أى شىء يريد البرهنة على صحته . وكان يكتب باللغة العبرية بأسلوب لا بأس به . ولكن أسلوبه فى اليونانية باغ من البجودة جداً جعل المهجيين به يقولون إن « أفلاطون كان يكتب كما يكتب فيلو » (١٤)

وكان فيلسوفاً أكثر مما كان رجلاً دينياً ، وكان صوفياً استبقت تقواه الشديدة تقوى بلوتينس وعقلية العصور الوسطى . وكان الله فى كتابات فيلو هو الكائن الجوهرى فى العالم ، وهو كائن غير مجسد ، أزلى سرمدى ، يحل عن الوصف ؛ فى وسع العقل أن يدرك وجوده ، ولكنه لا يستطيع أن يخضع عليه صفة ما ، لأن كل صفة تعنى التحديد . الذين يتصورونه فى صورة بشرية إنما

يفعلون ذلك لتقريبه من خيال البشر الحسى . والله موجود في كل مكان ؛ « وهل ثمة مكان يستطيع الإنسان أن يحده وليس الله فيه ؟ » (١٥) ولكنه ليس كل شيء ، فالمادة أيضاً سرمدية وغير مخلوقة ؛ ولكنها لا تكون لها حياة ، ولا حركة ، ولا صورة حتى تنبعث فيها القوة الإلهية .

ولكى يخلق الله العالم بأن يشكل المادة ، ويوجد الصلات بينه وبين الإنسان ، استخدم لذلك جمعا من الكائنات الوسطى يسميها اليهود ملائكة ويسميها اليونان شياطين diamones ويسميها أفلاطون أفكاراً . ويقول فيلو إن في وسعنا أن نتصور هذه الكائنات في صورة أشخاص ، وإن كانت في واقع الأمر لا وجود لها إلا في العقل الإلهي بوصفها أفكار الله وقواه (١٦) . وهي مجتمعة تكون ما يسميه الرواقيون الكلمة أو العقل الإلهي خالق العالم وهاديه . وكان فيلو يتأرجح بين الفلسفة واللاهوت ، وبين التجسيد ، ولهذا كان يفكر في العقل الإلهي مرة كأنه شخص وفي ساعة من ساعات نشوته الشعرية يسميه أول ما ولد الله (١٧) . وابن الله من الحكمة العذراء (١٨) ، ويقول إنه عن طريق الكلمة كشف الله عن نفسه للإنسان . وإذ كانت الروح في رأيه جزءاً من الله ، فإن في وسعها أن تسمو عن طريق العقل فترى الكلمة رؤيا صوفية ، وإن كانت لا ترى الله نفسه ؛ وربما كان في وسعنا إذا تحررنا من دنس المادة والحس ، وتدرّبنا على الزهد والتفكير الطويل ، أن نصبح في ساعة من الساعات روحاً خالصة ، وأن نرى الله نفسه في لحظة من لحظات النشوة (١٩) .

ولقد كانت « عقيدة العقل الإلهي » التي يقول بها فياوم من الآراء ذات الأثر الأكبر في تازيخ التفكير البشري . وإرأيه هذا سابقات واضحة في فلسفة هرقليطس وأفلاطون ، والرواقيين ؛ وأكبر الظن أنه كان يعرف الآداب اليهودية التي نشأت في العصر القريب من عصره ، والتي جعلت من حكمة الله بوصفه خالق الكون شخصاً محدداً مميّزاً ؛ وما من شك في أنه قد انطبعت في عقله

تلك العبارات الواردة في سفر الأمثال (٨ : ٢٢) وما بعدها ، والتي تقول فيها الحكمة : « الرب قناني أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم ، منذ الأزل مسحت منذ البدء ، منذ أوائل الأرض . إذ لم يكن نمر أبدت . إذ لم تكن ينابيع كثيرة المياه . من قبل أن تقرر الجبال قبل التلال أبدت إذ لم يكن قد صنع الأرض بعد » .

وكان فيلو معاصراً للمسيح ويلوح أنه لم يسمع قط عنه ، ولكنه قد أسهم على غير علم منه في تكوين اللاهوت المسيحي . ولم يكن أحبار اليهود راضين عن تفسيراته المجازية للكتاب المقدس ، لظنهم أن هذه التفسيرات قد تتخذ حجة لنهذ الطاعة الحرفية للشريعة اليهودية ؛ وكانوا يرتابون في عميقة الكلمة ويعدون ارتداداً عن عقيدة التوحيد ، كما كانوا يرون في هيام فيلو بالفلسفة اليونانية نذيراً بضياح ثقافتهم ، وفقدان الجزء الأكبر من خصائصهم العنصرية ، وما ينشأ عن هذا وذاك من اختفاء اليهود المشتين في بقاع الأرض . ولكن آباء الكنيسة المسيحية كانوا يعجبون بورع هذا الرجل اليهودي المنبعث عن تفكير عميق ، وكثيراً ما كانوا يلجئون إلى آرائه وتعبيراته المجازية ليردوا بها على من يتصدون لثقل التوراة العبرية ، وانضموا إلى جماعة العارفين (*) ورجال الأفلاطونية الحديثة في القول بأن رؤيا الله الصوفية هي أسى ما تصل إليه المحاولات البشرية . ولقد حاول فيلو أن يوفق بين اليهودية والفلسفة الهلينية ؛ فأما من وجهة النظر اليهودية فقد أخفق في مسعاه ، وأما من وجهة النظر التاريخية فقد أفلح ، وكانت ثمرة فلاحه هي الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا .

(*) هم طائفة من المسيحيين يعتقدون بأن الخلاص يكون عن طريق المعرفة لا عن طريق

الفصل الثالث

تقدم العلوم

كانت الإسكندرية زعيمة العالم الهلنستي في العلوم لا ينازعها في هذه المكانة منازع ، ومن أكبر علمائها في ذلك العصر كلوديوس بطليموس الذي يعد بلاجدال من أعظم علماء الفلك الأقدمين ، وذلك لأن العالم لا يزال على الرغم من كشوف كوبرنيك يتكلم في الفلك بلغة بطليموس . وكان مولد هذا العالم في بلدة بطليمونيس على شاطئ النيل (ومنها اشتق اسمه) ، ولكنه عاش معظم حياته في الإسكندرية ، وظل يرصد فيها الأجرام السماوية من عام ١٢٧ م إلى عام ١٥١ . وأهم ما يذكره به العالم أنه رفض نظرية أرسطاركس القائلة بأن الأرض تدور حول الشمس . وقد دونت هذه الفلسفة الخالدة في كتاب بطليموس المعروف باسم النظام الرياضي Mathematiké Syntaxis للنجوم . وكان العرب إذا تحدثوا عنه نعتوه باسم التفضيل اليوناني المجسطى Al-megisté « الأعظم » . وخرف الناس في العصور الوسطى هذا اللفظ فصار الماجست Almagest وهو الاسم الذي يعرف به الكتاب في التاريخ . وظلت لهذا الكتاب السيطرة على السماء حتى قلب كوبرنيك العالم رأساً على عقب . ومع هذا فإن بطليموس لم يدع أنه فعل أكثر من تنظيم أعمال من سبقوه من علماء الفلك وأرصادهم ، وأخصهم بالذكر هباركس . وقد صور الكون في شكل كروي يدور مرة في كل يوم حول أرض كرية ثابتة لا تتحرك . ومع أن هذا القول يبدو لنا غريباً (وإن كنا لا نعرف ما سوف يفعله كوبرنيك آخر في المستقبل ببطالستنا المحدثين) ، فإن النظرية القائلة بأن الأرض مركز الكون قد يسرت في ضوء

المعلومات الفلكية المعروفة في ذلك العصر تحديد مواضع النجوم والكواكب تحديداً أدق مما كانت تستطيعه النظرية القائلة بأن الشمس هي مركز العالم^(٢٠).
وعرض بطليموس فوق هذا لنظرية « الانحرافات » ليفسر إليها أفلاك الكواكب ، واستطاع أن يكشف انحراف فلك القمر . وقاس بعد القمر عن الأرض بطريقة الزيفان^(*) التي لا تزال مستخدمة إلى يومنا هذا ، وقدّر هذا البعد بما يعادل نصف قطر الأرض تسعا وخمسين مرة ، وهو يعادل تقديرينا الحاضر بوجه التقريب ؛ وإن كان بطليموس قد اتبع بيسيدونيوس في تقدير طول قطر الأرض بأقل من طوله الحقيقي

وقد لخص بطليموس في كتابه الموجز الجغرافي جميع ما كان يعرفه الأقدمون عن سطح الأرض ، كما لخص في نظامه الرياضي ما كانوا يعرفونه في الفلك وصاغه في صيغته الأخيرة . وهنا أيضاً أخطأ أخطاء جسيمه في أزياجه التي بذل فيها جهداً كبيراً ، والتي حدد فيها خطوط الطول ودوائر العرض لكبريات المدن على سطح الأرض ؛ وكان سبب هذا الخطأ قبوله تقدير بيسيدونيوس حجم الأرض بأقل من حقيقته . ولكن هذه الغلطة المشجعة التي نقلها عنه بطليموس هي التي يرجع إليها الفضل في اعتقاد كولينس أن من المستطاع الوصول إلى جزائر الهند في وقت قصير بالسير في اتجاه الغرب^(٢١) . وكان بطليموس أول من استعمل لفظي « متوازيات » (Parallels) و « خطوط الزوال » meridians علم الجغرافية ، وقدّ نجح في أن يصور على خرائطه جسماً كروياً على سطح مستو . ولكنه كان في الواقع عالماً رياضياً أكثر منه فلكياً أو جغرافياً ؛ وكان أهم جزء من عمله هو صياغته للقوانين الرياضية . وقد وضع في كتاب النظام زيجاً دقيقاً

(*) Parallax ويسمى اسماعيل الفلكي اختلاف المنظر وهو الانتقال الظاهر للكواكب إذا تغير موضع الناظر إليه على سطح الأرض . (المترجم)

لقياس الأقواس ، وذلك بأن قسم نصف قطر الأرض ستين قسماً أولى صغيرة *Partes minutae primal* هي التي صارت الدقائق عندنا ، ثم قسم كل واحدة من هذه الدقائق « أقساماً صغيرة ثانية » هي « الثواني » عندنا .

ووقع بطليموس في أخطاء كثيرة ، ولكنه كان له يلا ريب مزاج العلماء الحقيقيين وصبرهم . وقد حاول أن يعتمد في استنتاجاته على الأرصاد وقلما كان هو صاحبها . وقد قام في أحد الميادين بسلسلة طويلة من التجارب ، ووصف كتابه *Optica* - وهو دراسة في انكسار الضوء - بأنه « أعظم البحوث التجريبية في التاريخ القديم » (٢٢) . وما هو جدير بالذكر أن هذا الرجل الذي يعد من أعظم العظام في الفلك والجغرافية والرياضيات في عصره قد كتب أيضاً « أربعة كتب » *Tetrabiblos* فيما للنجوم من سلطان على حياة بني الإنسان .

وفي هذه الأثناء كان أرخميديز أصغر يهبي للعالم القديم فرصة ثانية لتقيام بانقلاب صناعه . وكان هذا الرجل مخترعاً أو جامعاً بارعاً وإن كنا لا نعرف عنه إلا اسمه الوحيد هيرون *Hero* . وقد أصدر هذا الرجل وقتئذ (*) في الإسكندرية سلسلة من الرسائل في الرياضة والطبيعة ، بقي لنا عدد منها مترجماً إلى اللغة العربية . وقد حذر قراءه في صراحة بأن النظريات والاختراعات التي يعرضها عليهم ليست كلها من اختراعه ، بل إنها قد تجمعت على مدى القرون الطوال . ووصف في كتابه الديوبترا *Dioptra* آلة شبيهة بالمزواة *theodolite* وصاغ عدداً من القوانين لقياس الأبعاد التي بين الإنسان وبين النقط التي لا يستطيع الوصول إليها ومساحة هذه الأبعاد . وبحث في كتابه *Mechanica* في طريقة استخدام أدوات

(*) وهناك خلاف في تاريخ هذا العالم ، فيول - وسوف *Pauly-Wissowa* يحده بعام ٥٠ ق . م ، بينما يحده هيربيرج *Heiberg* ، وديل *Diels* ، وهيث *Heath* بحوال ٢٢٥ م (٢٢) .

سهلة ، والجمع بينها ؛ ومن هذه الأدوات العجلة ، ومحورها ، والرافعة ،
والبكرة والإسفين ، واللولب . ودرس في كتابه *الهوائيات Pneumatica* ضغط
الهواء في سبع وثمانين تجربة معظمها من الحيل والألعاب ؛ منها أنه عرض
كيف يمكن جعل كل من التبيد أو الماء يخرج من فتحة صغيرة واحدة في
قاع وعاء وذلك بسد ثقب أو آخر في أعلى الوعاء المقسم قسمين .

ثم تدرج من هذه اللعب المسلية لصنع مضخة رافعة ، ومضخة لآلة إطفاء
الحريق ذات مكبس وصمامات ، وساعة مائية ، وأرغن مائي ، وآلة بخارية ؛
وفي هذا المخترع الأخير كان البخار الناشئ من الماء المسخن ينتقل من
خلال أنبوبة إلى كرة تدور في اتجاه مضاد لاتجاه البخار المطرود . وقد
حال إحساس هيرون الفكاهي الشديد بينه وبين ترقية هذا المخترع حتى
يمكن الاستفادة منه في الأغراض الصناعية . ومن أعماله أيضا أنه استخدم
البخار لوقف كرة في الهواء ومنعها من السقوط ، وجعل طائر آلي يفرد ،
وتمثال ينفخ في بوق . ودرس في كتابه *المرابا Catoptrica* انعكاس الضوء ،
وشرح كيف تصنع المرايا التي يستطيع الناظر فيها أن يرى ظهره ، أو يظهر
فيها ورأسه إلى أسفل ، أوله ثلاث أعين ، أو أنفان الخ . وعلم المشعوذين
كيف يقومون بالألعاب بأجهزة مخبأة عن الأعين . وقد جعل الماء يخرج
من حوض إذا وضعت قطعة من النقود في فتحة فيه . وصنع آلة مخبأة
تجعل الماء المسخن يفيض إلى جردل ، ويفتح أبواب هيكل بما يزيد من وزنه ،
وبوساطة مكبرات . وبفضل هذه الأساليب ومائة أخرى من نوعها استطاع
هيرون أن يكون مشعوذاً بارعا ، ولكنه عجز عن أن يكون مخترعا من
طراز جيمس وات *James Watt* .

وكانت الإسكندرية منذ زمن بعيد أهم مركز لدراسة الطب . نعم إنه
كانت في مرسيليا ، وليون ، وسرقسطة ، وأثينة ، وانطاكية ، وكوس ،

وإفسوس ، وأزمير ، وپرجموم مدارس طب شهيرة ، ولكن طلاب الطب كانوا يهرعون إلى الإسكندرية من جميع ولايات الإمبراطورية ، بل إننا لنجد أميانس مرسلينس Ammianus Marcellinus في القرن الرابع الميلادي ، حين أخذت مصر تسير في طريق الاضمحلال ، يتحدث عن الإسكندرية بقوله :

« حسب الطبيب تنويها بزاعته أن يقول إنه قد تعلم في الإسكندرية » (٢٤) .

وكان التخصص في الطب يسير قدما ، وشاهد ذلك ما يقوله فلستراتس (حوالي ٢٢٥ م) : « لا يستطيع إنسان أن يكون طبيبا لكل مرض ، بل يجب أن يكون هناك إخصائيون في الجروح ، والحميات ، والعيون ، والسل » (٢٥) . وكان تشريح الجثث الميته يحدث في الإسكندرية ، ويبدو أنه كان يجري فيها أيضاً تشريح للأحياء (٢٦) ؛

ولم تكن الجراحة في القرن الأول الميلادي أقل رقا في الإسكندرية. منها في أي مكان في أوروبا قبل القرن التاسع عشر . ولم تكن الطبيبات نادرات ؛ وقد كتبت واحدة ممن تدعى مترودورا Metrodora رسالة في أمراض الرحم لاتزال باقية إلى اليوم (٢٧) . ويزدان تاريخ الطب في هذا العصر بأسماء عظيمة : منها روفس الإفسوسي الذي وصف تشريح العين ، وميز أعصاب الحركة من أعصاب الحس ، وحسن طرق وقف النزيف في الجراحة ، ومنها مريوس Marinus الإسكندري الذي اشتهر بجراحات الجمجمة ، وأنتيلس Antylus أعظم الرمدين في عصره . وقد كتب ديوسكريديز Dioscorides الفليقي (٤٠ - ٩٠ م) كتابا في العقاقير وصف فيه وصفا علميا سائمة من النباتات الطبية وصفاً بلغ من الدقة حداً جعل كتابه هذا أهم مرجع في موضوعه حتى عصر النهضة الأوروبية . وقد أوصى في هذا الكتاب باستخدام « الصوفات » لمنع الحمل (٢٨) . وقد استُخدم للتخدير وصفه لنبذ البيروج mandragora . استخدماً ناجحاً في عام ١٨٧٤ .

ونشر سورانس الإفوسى حوالى عام ١١٦ م رسالة فى أمراض النساء ،
وفى مولد الأطفال والعناية بهم ، ولا يعلو عن هذه الرسالة من المؤلفات
الطبية القديمة الباقية إلى اليوم سوى مجموعات أبقراط ومولفات جالينوس .
ويصف المؤلف فيها منظراً مهلبيا وكرسيا للتوليد ، ويصف الرحم من
الناحية التشريحية أجود وصف ، ويقدم نصائح عملية وغذائية لا تكاد
تختلف عما يقدمه الأطباء فى هذه الأيام ، منها غسل عيني الطفل الحديث
الولادة بالزيت (٣٠) ، ويذكر أسماء نحو مائة وسيلة لمنع الحمل معظمها
أدوية للمهبل (٣١) ، وهو يميز الإجهاض إذا كان الوضع يعرض حياة الأم
للخطر (على عكس ما يراه أبقراط) (٣٢) .

وقصارى القول أن سورانس كان أعظم الإخصائين فى طب النساء
فى الزمن القديم ، ولم يفقه أحد فى هذا العلم حتى جاء پاريه Parê بعده
بخمسة عشر قرناً ؛ ولو أن رسائله الأربعين قد بقيت إلى هذه الأيام
لوضعناه فى أكبر الظن فى منزلة جالينوس .

وكان أعظم أطباء ذلك العصر ابن مهندس معمارى من برجموم ، وقد
سماه جالينوس Galenus أى الهادئ المسلم ، لأنه كان يأمل ألا يتخلق
بأخلاق أمه (٣٣) . ولما بلغ الشاب الرابعة عشرة من عمره شغف لأول مرة
بالفلسفة ، ولم يتحرر قط من غوايتها الخطرة ؛ وفى السابعة عشرة تحول
عنها إلى الطب ، ودرسه فى قليقية ، وفينيقية ، وفلسطين وقبرص ، وكريد ،
وبلاد اليونان ، والإسكندرية (وكان هذا الانتقال فى طلب العلم من طبيعة
العلماء الأقدمين) ، ثم اشتغل جراحاً فى مدرسة المجالدين فى برجموم ،
ومارس صناعته فترة من الزمن (١٦٤ - ١٦٨ م) فى رومة ، وفى
هذه المدينة أقبل عليه أغنياء المرضى لنجاحه فى صناعته ، كما أقبل عليه
كثيرون من علية القوم ليستمعوا إلى محاضراته ، وذاعت شهرته ذيوعا
جعل الناس يكتبون إليه من كافة الولايات يطلبون إليه النصائح الطبية ،
فكان يصف لهم العلاج الناجع بالبريد ، وكان والده الصالح قد نسي ما كان

يدور بخلافه حين اختار له اسمه قنصحه ألا ينضم إلى شيعة أو حزب ، وأن يكون صادقاً في كل ما يقول ، وصدع جالينوس بأمر أبيه ، وأخذ يشهر بجهل كثيرين من أطباء رومة وشرههم حتى اضطر بعد سنين قلائل إلى الفرار من أعدائه . ولكن ماركس أورليوس استندعاه ليعنى بكمودس الصغير (١٦٩) ، وحاول أن يأخذه معه في إحدى الحملات الماركونية ، ولكن جالينوس كان من الدهاء بحيث استطاع أن يعود مسرعاً إلى رومة . ومن هذا الوقت لا نعرف عنه غير مؤلفاته .

وتكاد هذه المؤلفات أن تبلغ من الكثرة ما بلغته مؤلفات أرسطو ، وقد بلغت خمسمائة أو نحوها ، وبقي منها ١١٨ كتاباً تحوى عشرين ألف صفحة ، تشتمل على جميع قروع الطب وعلى عدد من ميادين الفلسفة ، وليس لهذه الكتب قيمة طبية في هذه الأيام ، ولكنها تشتمل في مواضع منها منفرقة على معلومات نافعة ، وتكشف عن روح قوية ذات حيوية عظيمة ، مولعة بالبحث والجدل . وقد عوده ولعه بالفلسفة عادة سيئة هي استخلاصه نتائج كبرى من معلومات قليلة ، وكثيراً ما ساقه إيمانه بعلمه وقواه إلى تعسف لا يلبق بعقلية العلماء ، وكان سلطانه على من جاء بعده سبباً في بقاء أخطائه الشنيعة ذائعة قروناً عدة . لكنه كان على رغم هذه الأخطاء دقيق الملاحظة ، كما كان أكثر الأطباء الأقدمين اعتماداً على التجارب العملية . ومن أقواله في هذا المعنى : « إني لأعترف بذلك المرض الذي قاسيت منه الأمرين طوال حياتي - وهو أني لا أثق ... بأى قول حتى أجربه بنفسى على قدر استطاعتي » (٣٤) . ولما حرمت عليه الحكومة الرومانية أن يشرح أجسام آدميين أحياء كانوا أو أمواتاً ، عمد إلى تشريح الحيوانات الحية والميتة ، وكثيراً ما كان يتعجل فيطبق على تشريح الجسم الأدمى ما تسفر عنه دراسته للقردة ، والكلاب ، والبقر ، والخنائيز .

وقد أفاد علم التشريح من جالينوس رغم قصوره أكثر مما أفاده من أى

مُشاهد آخر في التاريخ القديم ؛ ذلك أنه وصف بغاية الدقة عظام الجمجمة والعمود الفقري ، والجهاز العضلي ، والأوعية اللبئية ، والغدة اللسانية ، والغدة اللعابية تحت الفك الأسفل ، وصمامات القلب ؛ وأثبت أن القلب إذا فصل عن الجسم يمكن أن يظل ينبض في خارجه ، وبرهن على أن الأوردة تحتوى دماً لا هواء (كما ظلت مدرسة الإسكندرية تعلم الناس مبدئاً أربعائة عام) . لكنه قد فاتته أن يسبق هارفي إلى كشف الدورة الدموية ، فقد ظن أن معظم الدم يسير في الأوردة إلى أجزاء الجسم المختلفة ثم يعود فيها أيضاً ؛ وأن البقية الباقية منه التي تختلط بهواء الرئتين تسير في الشرايين إلى أجزاء الجسم وتعود منها في الشرايين نفسها . وكان هو أول من شرح الجهاز التنفسي ، ودل على حصافة وبراعة حين قال إنه يظن أن العنصر الفعال في الهواء الذي نستنشقه هو نفسه العنصر الفعال في الاحتراق (٣٥) ؛ وميز التهاب الرئة ، ووصف الورم الوعائي(*) ، والسرطان ، والتدرن ، وعرف ما في ثانيهما من خطر العدوى . وأهم من هذا كله أنه وضع أساس مبحث الأعصاب التجريبي ؛ فهو أول من أجرى التجارب على قطاعات من النخاع الشوكي ، وعين الوظيفة الحسية والحركية لكل جزء منه ، وعرف الأعصاب السميتاوية ، وميز سبعة أزواج من الاثني عشر زوجاً من أعصاب الجمجمة ، وعرف كيف يستطيع حبس النطق بقطع عصب الخنجرة ، وبرهن على أن الضرر الذي يصيب أحد نصفي المخ يحدث اختلالاً في النصف المضاد له من الجسم ، وعالج السفوفسطائي يوسنياس من خنجر في خنصر يده اليسرى وبنصرها بتنبية الضفيرة العصبية التي يخرج منها العصب الزندي الذي يتحكم في هاتين الإصبعين (٣٦) . وقد برع في بحث أعراض الأمراض براعة أثر معها أن يشخص علة المريض

(*) اتساع أو تمدد يشمل طبقة أو جميع الطبقات من محيط وعاء دموي (قاموس
الدكتور شرف) . (المترجم)

دون أن يوجه إليه أسئلة^(٣٧) . وكان كثير الاعتماد على التغذية ، والرياضة ، والتدليك ولكنه كان خبيراً في العقاقير ، كثير الأسفار للحصول على الأدوية ، النادرة . وندد باستخدام البراز والبول في العلاج ، وكان ذلك لا يزال شائعاً عند بعض معاصريه^(٣٨) ، وأوصى باستعمال الكداس الحاف^(*) لعلاج المغص ، ووضع روث المعز على الورم ، وترك ثبناً طويلاً بالأمراض التي يمكن علاجها بالترياق^(**) - وهو دواء ذائع الصيت في ذلك الوقت. صنع لثرداتس الأكبر ليقاوم به السم ، وكان يقدم لماركس أورليوس كل يوم ويدخل فيه لحم الأفاعي^(٣٩) .

لكنه لوث سجله الحافل بالتجارب وشهرته فيها بسيل من النظريات التي تعجل في وضعها . وكان يسخر من السحر والرق ، ويقبل التنبؤ بالغيب عن طريق الأحلام ، ويظن أن أوجه القمر تؤثر في أحوال المرضى ؛ وصدق فكرة أبقراط عن الأخلط الأربعة (الدم ، والبلغم ، والسائل الصفراوي الأسود الأصفر)^(٤٠) ، وعمل على سرعة انتشار عقيدة فيثاغورس في الأركان (العناصر) الأربعة (التراب ، والهواء ، والنار ، والماء) ، وحاول أن يرد الأمراض كلها إلى اختلال في تلك الأخلط أو هذه الأركان . وكان قوى الاعتقاد بوجود الروح ، مؤمناً بأن النفس (pneuma) أو النفس الحيوى أو الروح تسرى في كل جزء من أجزاء الجسم ، وتبعث فيه النشاط والحركة . وكان كثير من الأطباء قد أخذوا يفسرون نظريات علم الأحياء تفسيراً آلياً ؛ ومن هؤلاء أسكليبياديز الذي كان يرى أن علم وظائف الأعضاء يجب أن ينظر إليه على أنه فرع من الطبيعة ؛ ولكن جالينوس اعترض على هذه الفكرة ؛ وقال إن الآلة ليست إلا مجموعة

(*) بق متجانس الإجنحة .

(**) يسمى أيضاً الدرياق ، والدرياج ، والطرياق والملفظ يوناني معرب (شرف) .

(٤٠) لقد عاد الطب الحديث يؤكد شدة أهمية إفرازات الغدة

أجزائها ، وأما الكائن العضوى فإنه يشتمل أيضاً على الإشراف الغائى على جميع أجزاء الكل . وكما أن الغاية وحدها هى التى يمكن بها تفسير منشأ الأعضاء وتركيبها ، ووظيفتها ؛ فكذلك يرى جالينوس أن الكون لا يمكن أن يفهم إلا على أنه تعبير عن خطة إلهية وأداة لتنفيذ هذه الخطة . لكن الله لا يعمل إلا بوساطة قوانين طبيعية ، وعلى هذا ليس ثمة معجزات ، وخير وحى هو الطبيعة نفسها .

وأحب المسيحيون جالينوس لإيمانه بالغائية وبالوحدانية فى الدين ، كما أحبه المسلمون بعدئذ لهذا السبب عينه ؛ وقد فقدت أوروبا كل كتاباته تقريباً فى أثناء الفوضى التى أعقبت غزوات البرابرة ، ولكن علماء العرب حفظوها لبلاد الشرق ، ثم ترجمت هذه المؤلفات من اللغة العربية إلى اللاتينية فى القرن السابع والقرون التى تلتها ، وأصبح جالينوس بعدئذ المرجع المعترف به الذى لا يوجه إليه نقد ، فكان هو أرسطو الطب فى العصور الوسطى .

واختتم آخر عصر مبدع من عصور العلم اليونانى ببطليموس وجالينوس ، ومن بعدهما انتهى عصر التجارب وساد عصر العقائد التحكيمية ، وانحط علم الرياضة فأصبح مجرد ترديد للهندسة ، كما انحط علم الأحياء فأصبح ترديداً لأقوال أرسطو ، وانحطت العلوم الطبيعية فأصبحت ترديداً لأقوال پلنى ، ووقف الطب جامداً حتى جاء أطباء العرب واليهود فى العصور الوسطى فجددوا هذا العلم الذى يعد أشرف العلوم على الإطلاق .

الفصل الرابع

الشعراء في الصحراء

تقع بلاد العرب في الناحية الشرقية من البحر الأحمر ، وقد عجزت الفراعنة ، والأكينيوم ، والسلوقيون ، والبطالمة ، والرومان عن فتح تلك الجزيرة الغامضة العجيبة ، ولذلك ظلت صحراء العرب لا تعرف إلا العرب البدو . لكن في جزئها الجنوبي الغربي سلسلة جبلية تسيل فيها عدة مجار مائية فتلطف حرارتها ، وتنبت فيها أشجار الفاكهة وتخلق منها بلاد العرب السعيدة Arabia Felix أو بلاد اليمن كما يسمونها في هذه الأيام . وقد قامت في خبايا تلك البلاد مملكة سبأ الصغيرة التي ورد ذكرها في التوراة (*) ، والتي يكثر فيها الكندر ، والمر ، والقشية (خيار شنير) ، والقرقة ، والصبر ، والزردين ، والسنا المكى ، والصبغ ، والحجارة الكريمة . وقد استطاع أهلها أن يشيدوا عند مأرب وغيرها من الأماكن مدناً تزدهر فيها كلها ، وقصورها ، وأروقها المعمدة (٤٠) . ولم يكتف تجار العرب بأن يبيعوا محصولات بلادهم بأغلى الأثمان ، بل كانوا يسرون فيها القوافل التجارية إلى بلاد شمالى آسية الغربى ، وكانت لهم تجارة بحرية نشيطة مع مصر ، وپارثيا ، وبلاد الهند . وبعث أغسطس إيلبوس جالس في عام ٢٥ ق . م ليضم تلك المملكة إلى الإمبراطورية الرومانية ، ولكن فيالقه عجزت عن الاستيلاء على مأرب وعادت إلى مصر بعد أن قضت الأوبئة وشدة الحرارة على عدد كبير من رجالها . وحينئذ اكتفى أغسطس بتدمير مرفأ أدانا (عدن) العربى ، فأمن بذلك التجارة بين مصر والهند .

وكان أهم الطرق التجارية الممتدة من مأرب إلى الشمال يخرق الطرف الشمالى

(٥) والقربان . (المترجم) .

الغربي من جزيرة العرب ، المعروف عند الأقدمين باسم بلاد العرب البطرية نسبة إلى عاصمتها بطرة التي تبعد عن أورشليم بنحو أربعين ميلا جهة الجنوب . وكان السبب في إطلاق هذا الاسم على المدينة أنها كانت قائمة وسط دائرة من الصخور الوعرة جعلتها أمنع من عقاب الجو . وفي هذا الجزء أقام العرب في القرن الثاني مملكة أخذت تزداد ثراء على مر الأيام حتى امتد سلطانها من لوس كوم Leuce Come على البحر الأحمر إلى دمشق ، واشتملت على الجزء المصائب لحدود فلسطين الشرقية وجراسا Gerasa وبُصرى . وبلغت هذه المملكة ذروة مجدها تحت حكم الملك أرتاس الرابع Aretas (٩ ق . م - ٤٠ م) ، وأضحت بطرة أيامه بلدة هلنستية ، لغتها آرامية ، وفنها يوناني ، وشوارعها في عظمة شوارع الإسكندرية . وتنتمي إلى هذا العصر القبور الضخمة المنقورة في الصخور القائمة في خارج المدينة ، وهي ذات واجهات ساذجة خشنة ولكنها تنبئ عن القوة ، وعمد يونانية مزدوجة ، يبلغ ارتفاعها في بعض الأحيان مائة من الأقدام . وبعد أن ضم تراچان المملكة الشمالية إلى إمبراطوريته (١٠٦) جعل بُصرى عاصمة ولاية بلاد العرب ، فشادت تلك المدينة العماثر التي ترمز إلى ثرائها وسلطانها . واضمحلت بطرة بعد أن أصبحت طرق القوافل التجارية تلتقي عند بصرى وتدمر Palmyra ، وانحط شأن المقابر العظيمة حتى أصبحت « مداود ليابة لقطعان البدو » (٤١) .

وكان أبرز مظاهر الإمبراطورية العظيمة كثرة مدائنها العامرة بالسكان ، ولم تنشأ مدن في عصر من العصور التالية لذلك العصر ، إذا استثنينا القرن الحالى ، بالكثرة التي أنشئت بها في ذلك العهد ، فقد كان لوكلس ، وپمپي ، وقيصر ، وهيرود ، والملوك الهلنستيون ، والأباطرة الرومان يفاخرون بما ينشئون من المدن الحديدية وبتزيين المدن القديمة ، حتى لقد كان يصعب على الإنسان وهو ينتقل نحو الشمال محاذيا للشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، أن يسير عشرين ميلا

دون أن تلقاه مدينة رفح (رافيا) ، وغزة ، وعسقلان ، ويافا (جيا) ، وأبولونيا ، والسامرة ، وقيصرية . وكانت هذه المدن رغم وجودها في فلسطين نصف يونانية في سكانها ، تسودها لغة اليونان وثقافتهم وأنظمتهم . فكانت - والحالة هذه - بمثابة جسور تنتقل عليها الهلنستية في غزوها الوثني لبلاد اليهود . وأنفق هيرود أموالا طائلة في جعل مدينة قيصرية خليقة بأغسطس الذي سميت باسمه ، فأنشأ لها مرفأ صالحا جيلا ، ومعبداً شامخاً ، وملهى ومدرجاً ، وأقام فيها قصوراً فخمة وصورنا. كثيرة من الحجر الأبيض « (٤٢) . وأنشئت في داخل البلاد مدن أخرى يونانية فلسطينية - ليفياس Livias ، وفلادلفيا ، وجراسا ، وجندارا (قطرة Katra) : وفي جراسا مائة عمود هي كل ما بقى من العمد التي كانت قائمة على جانبي شوارعها الرئيسية ؛ وإن خرائب هياكلها ، وملهاها ، وحماماتها ، ومجرى مائها لتتطق بما كانت عليه المدينة من الثراء في القرن الثاني بعد الميلاد .

وكانت جدارا ، التي تتردد في خرائب ملهاها صدى ذكريات المسرحيات اليونانية ، تشتهر بمدارسها ، وأساتذتها ، ومؤلفيها . وفيها عاش في القرن الثالث قبل الميلاد منيوس Menippus الفيلسوف والفكاهي الكليبي الذي يعلم بهجائه أن كل شيء عدا الحياة الصالحة باطل ، والذي كان مثالا احتذاه لوسليوس ، وقارو ، وهوراس . وفي هذه المدينة « أثينة سوريا » أنشأ مليجر ، أنكريون زمانه ، قبل ميلاد المسيح بنحو ألف عام تلك المقطوعات الشعرية المصقولة التي كان يتغزل فيها بجمال النساء والغلمان . وظل يكتب قصائد الحب حتى كلَّ قلمه :

« ما أخلى ابتسام الكأس للحبيب العزيز ، بعد أن مسها فم
زنوفيليا Zenophila الجميل . وما أسعدني إذا وضعت شفتيها
الورديتين على شفتي ، وعبت روحي عبا في عناق طويل « (٤٣) .

وكان لهيب من هذا النوع ، خبا قبل الآوان ، يشتعل قويا في ذاكرته .
ذلك هو هليودورا Heliodora التي أحبها في صور .

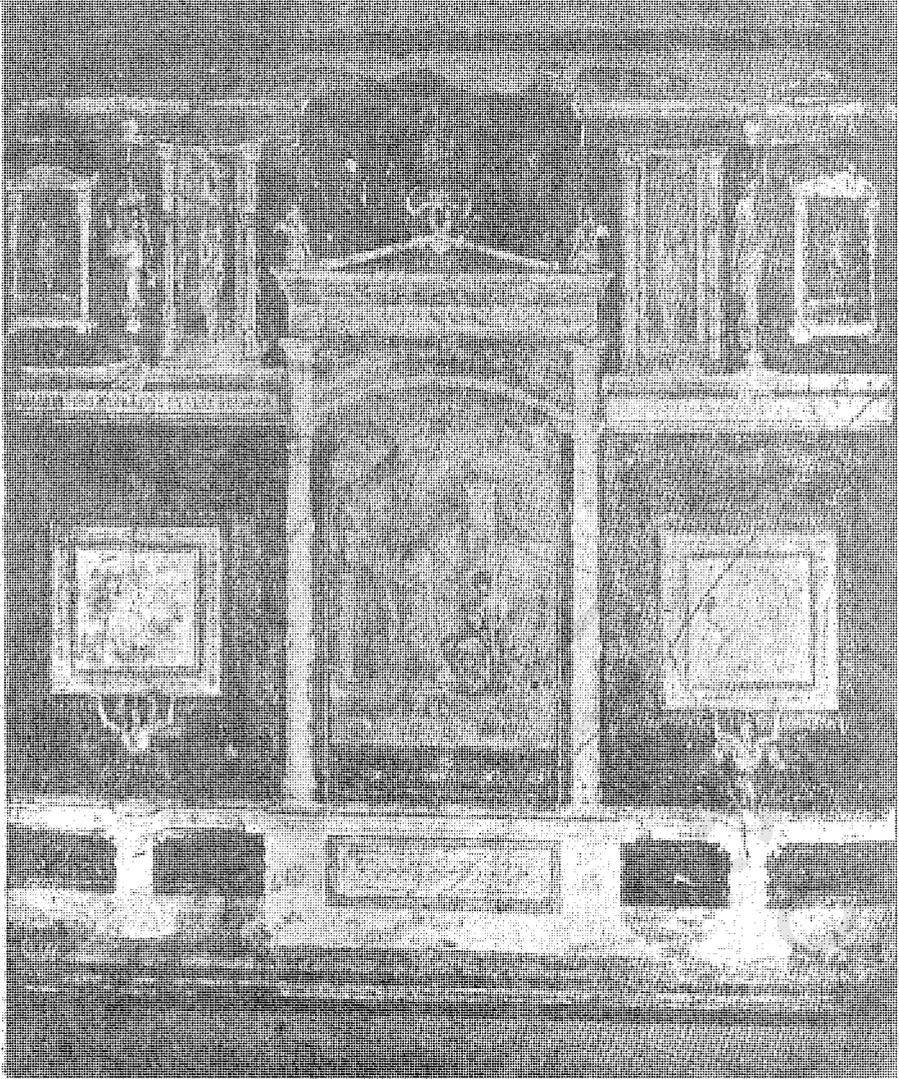
سأجدل البنفسج الأبيض ، والآس الأخضر ؛ سأجدل النرجس ،
والزنبق. اللامع ؛ سأجدل الزعفران الحلو ، والسنبيل البري
الأزرق ؛ وسأجدل آخر الأمر الورد رمز الحب الأكيد ، حتى
يتألف منها جميعاً تاج من الجمال خليق بأن يزين غدائر هليودورا
الحلوة^(٤٤) . والآن وقد اختطفها الموت ولوث الثرى زهرتها
الناضرة ، فإني أتوسل إليك يا أمنا الأرض أن نكون في رحمة
حين تضمينها إلى صدرك^(٤٥) .

وقد خلد مليجر اسمه بأن جمع في « إكليل » (Sléphamos) ما قاه
شعراء اليونان في الرثاء من أيام سايفو Sappho إلى أيام مليجر . ومن هذه
المجموعة وأمثالها من المجموعات نشأت دواوين الشعر اليوناني^(*) . وفيها نجد
أحسن المقطوعات الشعرية وأسوأها ، فنما ما هو مصقول كضقل الجواهر ،
ومنها ما هو أجوف كالألغاز . ولم يكن من الحكمة أن تقطف هذه « الأزهار »
الأربعمائة من غصونها ليصنع منها التاج الذابل .

ومن هذه الأبيات ما يجبي ذكرى بعض الموتى من عطاء الرجال ، ومنها
ما يخلد ذكرى تماثيل مشهورة ، أو أقارب فارقوا هذه الدار . ومنها قبريات
ذاتية ، إذا صحح ذلك التعبير . فقد كتبت امرأة ، ماتت وهي تلد ثلاثة أطفال
في وقت واحد ، تقول تلك القالة السديدة : « وبعد هذا فلتطلب النساء

(*) وقد ضم « إكليل » مليجر في القرن السادس الميلادي إلى ديوان شعر كله تغزل في
الفلان جمعه استرابون المرديسي (٥٠ ق - م) - وضمت إليه فيما بعد مقطوعات أخرى ،
معظمها من أشعار المسيحيين . وأخذ ديوان الشعر اليوناني شكله الذي هو عليه الآن في
القسطنطينية حوالى عام ٩٢٠ م .

الأبناء» (٤٦) . ومنها ما هو سهام موجهة إلى صدور الأطباء ، والنساء السليطات ، ومجهزي الموتى للدفن ، ومعلمى الأحداث ، والديوثين ؛ أو إلى صدر البخيل الذى أفاق من إعماءة لما شم رائحة فلس ؛ أو النحوى الذى ظهو حفيد له ذكراً ثم أنثى ثم شيئاً آخر هو ذكر وأنثى معاً (٤٧) ؛ أو الملاكم المحترف الذى اعتزل حرفته ، وتزوج ، فكانت له زوجته ضربات أكثر مما كانت تكال له فى حلبة الملاكمة ؛ أو القزم الذى اختطفته بعوضة فظن أنه يعانى الآلام من اختطاف جنميدى . وثمة مقطوعة تشيد بمدح « المرأة الشهيرة التى لم تضاجع إلا رجلاً واحداً » ؛ ومقطوعات أخرى تقدم بها القرابين للأرباب : فى واحدة منها تعلق ليس Lais مرآتها بعد أن أصبحت عديمة النفع لأنها لا تظهرها بالصورة التى كانت عليها من قبل ؛ وفى أخرى نرى نيسياس Nicias تسلم راضية منطقتها إلى فينوس بعد أن قضت فى خدمة الرجال خمسين عاماً . وتمجد بعض المقطوعات أثر النبيل فى توسيع الشرايين وتقول إن هذا أحكم من الحكمة ؛ ومنها واحدة تمجد الزانى الذى يجمع فى وقت واحد بين اثنتين والذى دفن تحت الأقباض بين ذراعى عشيقته ؛ ومنها مرثى وثنية تصف قصر الحياة ؛ ومنها توكيدات مسيحية ليوم البعث السعيد . ومعظمها ، بطبيعة الحال ، يمدح جمال النساء والعلمان ، ويتغنى بنشوة الحب الموجهة . وإنك لتجد هنا كل ما ورد فى الأدب بعد ذلك العصر عن آلام العاشقين وتجده موجزاً كاملاً ، فيه من الأفكار أكثر مما فى الشعر الأنجليزى فى عصر إليزابث . من ذلك أن مليجر يتخذ بعوضة قوادة له ، ويحملها رسالته إلى السيدة التى كان يحبها فى تلك الساعة . وهاهو ذا فلوديمس Philodemus ابن بلدته ، والفيلسوف الذى يسدى النصح لشيشرون ، يغنى لمحبوبته زنبو Xantho أغنية حزينة فيقول :



(شکل - ۷) نقش جدارى من بيت فرنزیا الربى (متحف تری برومة)

يا ذات الخلدن الأبيضين كلون الشمع ، والصدر الناعم ذى العطر
الشجي ، والعينين اللتين تعشش فيهما رباب الفن ، والشفتين
الحلوتين اللتين تفيضان بأكل اللذات . . . غنى لى أغنيتك .
يا زنشو يا ذات الوجه الشاحب غنى . . . ما أسرع ما تنقطع
الموسيقى . أعيدى المنعمة الحلوة الحزينة مرة بعد مرة ، ومنسى الوتر
بأصابعك العطرة ، يا بهجة الحب ، يا زنشو الشاحبة ، غنى (٤٨) . .

الفصل الخامس

السوريون

تقوم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في جزئه الشمالى مدن فينيقية القديمة التي كانت هي وفلسطين جزءاً من ولاية سوريا الرومانية ؛ وقد ظلت هذه المدن حية طوال الحقبة التي دامت ألف عام مليئة بالأحداث الجسام . وذلك بفضل عمالها المجددين البارعين في الصناعات اليدوية ، وبفضل موقعها الذي جعل فيها على مر الأيام مرافق تجارية هامة ، وتجارها المهرة الأغنياء الذين كانوا يرسلون سفنهم وعمالهم إلى كل مكان معروف على ظهر الأرض . وكان في صور مبان أعلى من مباني رومة (٤٩) . وأحياء أقدر من أحيائها ؛ تفوح منها روائح مصانع الصباغة الكريمة ؛ ولكنها كانت تعزى نفسها باعتقادها أن العالم كله يبتاع منسوجاتها ذات الألوان المتعددة الجميلة ، وبخاصة حريرها الأرجواني . والراجح أن صيدا قد كشفت طريقة صنع الزجاج بالنفخ ، وأنها تخصصت وقتئذ في صناعة الزجاج والبرنز ، واشتهرت برنيس (بيروت) بمدارس الطب والبلاغة والقانون ، وأكبر الظن أن أبيان وبانيان المشترعين العظمين قد تخرجا في جامعتها ثم انتقلا منها إلى رومة . ولم يكن في الإمبراطورية كلها ولاية تفوق سوريا في صناعاتها ورخائها ؛ وكان يعمرها في زمن تراچان عشرة ملايين من الأنفس وإن كان سكانها الآن لا يزيدون على ثلاثة ملايين ولا يكادون يجدون ما يكفيهم من أسباب العيش (٥٠) . وكان في الولاية نحو خمسين مدينة تستمتع بالماء النقي ، والحمامات العامة ، والحجاري الممتدة تحت الأرض ، والأسواق النظيفة ، ومدارس التدريب الرياضي ، وساحات الألعاب ، والمحاضرات ، والموسيقى ، والمدارس ، والهياكل ، والباسقات ، والأروقة المعمدة ، والأقواس ، والتماثيل العامة ، ومعارض الفن العمومية ، وهي

المظاهر التي كانت تمتاز بها المدن الهلنستية في القرن الاول بعد الميلاد^(٥١) وكانت أقدم هذه المدن كلها مدينة دمشق القائمة وراء جبال لبنان المواجهة لصيدا ، وكانت تحميها الصحراء المحيطة بها . وقد أحالتها إلى حديقة غناء روافد وفروع لذلك الحجرى الذى سماه الأقدسون « نهر الذهب » اعترافاً منهم بفضله . وكانت تلتقى عندها كثير من طرق القوافل ، وتفرغ في أسواقها غلات قارات ثلاث .

وإذا عاد المسافر في هذه الأيام فعبّر تلال لبنان الصغرى واتجه نحو الشمال في طرق متربة أدهشه أن يجد في قرية بعلبك الصغيرة بقايا هيكلين فخمين ومدخل عظيم ، كانت في يوم من الأيام مما تفخر به هليوبوليس مدينة الشمس اليونانية - الرومانية - السورية . وأسكن أغسطس في ذلك المكان جالية رومانية صغيرة ، ثم تمت المدينة وازدهرت وصارت مركز عبادة بعل إله الشمس وملتقى الطرق الناهبة إلى دمشق ، وصيدا ، وبيروت . وأقام المهندسون والبناءون الرومان ، واليونان ، والسوريون في مكان هيكل بعل الفينيقى القديم مزاراً فخماً لجوهر الهليوبوليسى ، أقاموا كل جدار من جدرانه من حجر واحد ضخّم قطعوه من محجر يبعد عن موضعه مسافة ميل . وكانت إحدى كتله الحجرية تبلغ اثنين وستين قدماً في الطول وأربع عشرة في العرض ، وإحدى عشرة في الارتفاع ، وفيها من المادة الحجرية ما يكفي لبناء بيت رحب . وكانت إحدى وخمسون درجة من الرخام يبلغ عرض الواحدة منها مائة وخمسين قدماً تؤدى إلى المدخل الكورنثى العظيم ، فإذا اجتاز الإنسان البهو الأمامى والبهو الذى يليه المعمرين وجد البناء الرئيسى للهيكل ، وقد بقي منه حتى الآن ثمانية وخمسون عموداً تعلو في الجوانب اثنتين وستين قدماً . وبالتقرب من هذا الهيكل الكبير بقايا هيكل أصغر منه ، يقال أحياناً إنه كان هيكل فينوس وأحياناً باخوس ، وأحياناً ديمتر . وقد أبقى الزمان على تسعة عشر عموداً من عمدته ، وعلى باب جميل دقيق النقش . وتتألق هذه العمدة الفخمة المنزلة في شمس السماء الصافية ، وهى من أجل ما بقي من

مخلفات العصور السالفة . وإن المرء حين يشاهدها ليحس ، أكثر مما يحس حين يشاهد أي أثر من آثار رومة ، بعظمة الإمبراطورية الرومانية ، وبما فيها من ثراء ، وشجاعة ، ومهارة ، وذوق جميل أمكنها بها أن تشيد في مدنها الكثيرة المتفرقة هياكل أعظم وأكثر فخامة مما عرفته العاصمة المزدهرة في أي عصر من عصورها ..

وتقع على منظر كهذا عين السائح الذي يتجه نحو الشرق ويعبر الصحراء من حمص ، إمسا Emessa القديمة ، إلى تدمر التي ترجم اليونان اسمها إلى پلميرا Palmyra أى المدينة ذات الألف نخلة . وقد كانت أرضها الحصينة المحيطة بعينين نضاختين ، وموقعها الحسن على الطريقين الممتدين من حمص ودمشق إلى نهر الفرات ، سببا في ثرائها ، فلم تلبث أن أصبحت من أكبر مدائن الشرق ؛ وقد أمكنها بعدها عن غيرها من المحلات أن تحتفظ باستقلالها الفعلى رغم تبعيتها الاسمية للملوك السلوقيين أو للأباطرة الرومان . وكان على جانبي شارعها الأوسط الرئيسى أروقة ظليلة تحتوى على ٤٥٤ عموداً ، وفي مواضع تقاطعه الأربعة أقواس فخمة بقي منها واحد حتى الآن شاهدا على ما كانت عليه بقية هذه الأقواس من عظمة وجلال . وكان أجمل مباني المدينة كلها وأعظمها هيكل الشمس الذى شيد في عام ٣٠ م . للثالوث الأعظم بعل ، وبرهبول (الشمس) وأجلبول (القمر) . وكان حجمه اطراداً لتقاليد الأشوريين في الضخامة ، وكان بهوه ، وهو أكبر الأبهاء في الإمبراطورية الرومانية ، يحتوى على صف من العمد لا مثيل له في بلد من بلادها ، طوله أربعة آلاف قدم ، وكان الكثير منها عمداً كورنثية مرتبة صفوفاً في كل منها أربعة . وكان في داخل البهو والهيكل رسوم ملونة ومنحوتة يدل ما بقي منها على اقتراب تدمر من پارثيا في الفن كقرهما في المكان .

ويبدأ من تدمر طريق رئيسى يتجه نحو الشرق ويصل إلى نهر الفرات عند دورا - أورپس Dua-Europus . وهنا اقتسم التجار (عام ١٠٠ م)

مكاسبهم مع الثالث التدمرى بأن شيدوا له هيكلا كان مزيجا من الفن اليونانى والهندي ، وزين مصوز شرقى جدرانها بمظلمات تدل أوضح دلالة على أن الفن البيزنطى والفن المسيحى الأول من أصل شرقى (٥٢) . وكان على النهر الأعظم شمال هذه المدينة مدينتان أخريان ذواتا شأن عند ملتقى طريقين برين كبيرين وهما مدينتا ثيساكس Thapsacus وزجما Zeugma . وإذا اتجه المسافر من ثيساكس نحو الغرب مر بمدينتى بروثيا Beroea (حلب) ، وأپاميا Apamea ووصل إلى البحر الأبيض المتوسط عند الأوديسيا Laodicea - التى لا تزال تحتفظ باسمها القديم اللادقية مع تحريف قليل فيه ، ولا تزال أيضاً ثغرا ناشط الحركة . وبين هذه البلدة وأپاميا يتجه نهر العاصى نحو الشمال وتمتد على شاطئيه ضياع غنية حتى يصل إلى أنطاكية عاصمة سوريا فى ذلك الوقت . وكان النهر تعاونه شبكة عظيمة من الطرق البرية يحمل بضائع الشرق إلى أنطاكية ، بينما كانت سلويا سپيريا Selluci Spieria ثغر البلاد الواقع على البحر الأبيض على بعد أربعة عشر ميلا من أنطاكية نحو مصب النهر تأتى إليها بمواصلات الغرب . وكان الجزء الأكبر من المدينة يقوم على سفح الجبل ويشرف على نهر العاصى الذى يجرى من تحته . وكانت المدينة ذات موقع جميل استطاعت انطاكية بفضلها أن تنافس رودس فى أن تكون أجمل مدائن الشرق الهلنستى . وكانت شوارعها تضاء بالليل فتكسبها بهجة وجمالا ، وتؤمن سكانها على أنفسهم وأموالهم ، وكان شارعها الرئيسى البالغ طوله أربعة أميال ونصف ميل مرصوفاً بالحجر الأعبل ، ويقوم على جانبيه صفان من العمد المسقفة ، فكان فى وسع الإنسان أن يسير راجلا من أحد طرفى المدينة إلى طرفها الآخر وهو آمن من المطر وحر الشمس . وكان الماء البقى يصل بمقادير موفورة إلى كل بيت من بيوتها . وقد اشتهر سكانها البالغ عددهم ٦٠٠٠٠٠ ، والذين كانوا خليطا من اليونان ، والسوريين ، واليهود بإفراطهم فى اللهو والمرح ، يعبون اللذات عبا ، ويسخرون من الرومان

المتباهين الذين لجأوا ليحكموهم ، والذين يقضون أوقاتهم بين حلبة الألعاب ، والمدرج ، والمواخير ، والحمامات ، ويستمتعون بكل ما يتيح له لهم دافنى Darfne بستانهم الشهير القائم في ضاحية المدينة . وكان للأهلين أعياد كثيرة ، تستمتع أفرديتى بنصيب فيها كلها . وفي عيد بروماليا Brumalia الذى كان يلوم معظم شهر ديسمبر ، كانت المدينة كلها ، كما يقول كاتب معاصر ، تبدو كأنها حانة واحدة ، وكانت الشوارع تعج طول الليل بالغباء والقصف والمرح^(٥٣) . وكان فيها مدارس لتعليم البلاغة ، والفلسفة ، والطب ، ولكنها لم تكن مركزاً علمياً ، ذلك أن أهلها كانوا يقضون يومهم كله فى العمل ، فإذا احتاجوا للدين لجأوا إلى المنجمين ، والسحرة ، وصناع المعجزات ، والمشعوذين .

والصورة التى تطالعنا لسوريا تحت حكم الرومان هى صورة البلد الرخى رخاء أدم من رخاء أية ولاية أخرى من ولايات الدولة الرومانية . وكان معظم أهلها من الأحرار إلا من كان يقوم منهم بالخدمة فى البيوت . وكانت الطبقات العليا مصطبغة بالصبغة اليونانية ، أما الطبقات الدنيا فقد احتفظت بطابعها الشرقى . وكان الفلاسفة اليونان يختلطون فى المدينة الواحدة بعاهرات المياكل والكهنة الفنيين ، وقد ظل الأطفال حتى أيام هديران يضحى بهم قرباناً للآلهة^(٥٤) . وكانت التماثيل المنحوتة والصور الملونة ذوات وجوه وأشكال نصف شرقية ، وعليها طابع العصور الوسطى . وكانت اللغة اليونانية اللغة السائدة فى دور الحكومة وفى الأدب ، ولكن لغات البلاد - وأهمها الآرامية - ظلت لغة التخاطب بين الأهلىن . وكان العلماء فيها كثيرين ، وقد طبقت شهرتهم العالم كله فترة قصيرة من الزمان . فقد كان منهم نقولوس الدمشقى الناصح الأمين لأنطونيوس وكليوباترة ، وهيرود ، والذى أخذ على عاتقه ذلك الواجب الثقيل الممل واجب كتابة تاريخ عام ، وهو واجب يتفق منه هرقل نفسه ، على حد قوله^(٥٥) . وقد أشفق الدهر عليه فدفن كل مؤلفاته ، كما سيدفن مؤلفاتنا هذه على مهل .

الفصل السادس

آسية الصغرى

كان في شمال سوريا مملكة كمجيني Commagene التي كانت في أول الأمر منضمة للإمبراطورية الرومانية ثم أصبحت فيما بعد ولاية من ولاياتها ؛ وكانت عاصمتها سموساتا Samosata ، التي قضى فيها لوشيان أيام طفولته ، أهلة بالسكان . وكان في الناحية الأخرى من نهر الفرات مملكة أسرهوني Osrhoene الصغيرة ؛ وقد حصنت رومة عاصمتها إدسا Edessa (أورفه) لتكون قاعدة لها ضد پارثيا ، وسنسمع الكثير عنها في عصر المسيحية . وإذا اتجه المسافر غربا من سوريا انتقل إلى قليقية (كما ينتقل الآن إلى تركيا) عند الكسندريا إسى Alexandria Issi (الإسكندرونه) . وكانت هذه الولاية ، وهي ولاية شيشرون ، ذات حضارة راقية تمتد على الساحل الجنوبي لآسية الصغرى ، ولكنها في جزئها الواقع على جبال طوروس لم تكن قد خرجت بعد من طور الهمجية .. ولم تكن حاضرتها طرسوس « بالمدينة الحقيرة » كما يقول ابنها القديس بولس ، بل كانت تشتهر بمدارسها وفلاسفتها .

وكان أمام قليقية في البحر الأبيض المتوسط جزيرة قبرص تعمل كما كانت تعمل من أقدم الأزمنة في استخراج النحاس ، وقطع أشجار السرو ، وبناء السفن ، وتلقى صابرة ضربات الفاتحين . وكانت مناجها الغنية ملكا لرومة تستغلها على أيدي الأرقاء . ويصف جالينوس في أيامه منجماً انهار على من فيه وقضى على حياة مئات من العمال - وتلك حادثة تتكرر آنأ بعد آن في الأبسس الجيولوجية بقوى الإنسان وأسباب راحته :

وكان إلى شمال قليقية ولاية كهدوكيا الجبلية القاحلة ، اللغنية بمعادنها النفيسة ، والتي تنبت القمح وتربي الماشية والعبيد لتصدرها إلى خارجها . وكان إلى غربها ولاية ليكاونيا Lycaonia التي يبدأ تاريخها بزيارات القديس بولس للبري Derbe ، وليسترا Lystra وأيكونيوم iconium . وفي شمال هذا الإقليم نجد جلاتيا Galatia التي استوطنها الغاليون وأطلقوا عليها هذا الاسم في القرن الثالث قبل الميلاد . وكان أهم ما أخرجته هو حجر بيسيتس Pessinus الأسود الذي أرسل إلى رومة ليكون رمزاً لسيدل ، وكانت أهم مدينها في ذلك الوقت مدينة أنقورة Ancyra . (أنقره) التي كانت عاصمة لحثيين منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة عام ، والتي صلت عاصمة تركيا في هذه الأيام . وكان في ولاية بيسيديا Pisidia الواقعة غرب قليقية خمس مدن جميلة مثل زئوس التي كانت وقتئذ قد بدأت تستفيق من الانتحارات الكثيرة قبل بروتس ، وأسپندس Aspendus التي احتفظت بملهاها إلى درجة يسهل على الإنسان معها أن يتصوره وقد امتسلاً مرة أخرى ليستمع إلى منته أو يوريديز .

وكان في شمال بيسيدنا وغربها ولاية «آسية» بأقسامها الأربعة : غريچيا ، وكاريا ، وليديا ، وميزيا Mysia . وكانت حضارة أيونيا لا تزال مزدهرة في هذه الولاية بعد أن بدأت فيها منذ ألف عام ، وقد استطاع فيلوستراتس أن يحصى فيها خمسمائة بلدة يبلغ مجموع سكانها أكثر مما تكفيهم موارد الإقليم كلها في هذه الأيام . وكان فيها خصباً ، وكانت الصناعات قد ازدادت دقة جيلاً بعد جيل ، وكانت للتخورد أفادت من قيام الأسواق الغنية في إيطاليا ، وأفريقية ، وآسيا ، وغاللة . لقد كانت غريچيا بلاداً جبلية ، ولكنها كانت ترهو بمدينتها الكبيرة كأمبيا سيلتي Apamea Celaenae — التي يقول استرابون إنها لا يوقها إلا إفسيس في «آسية» — ولوديسيا التي أسعدها الحظ بفلاستها وأثرها المحسنين الحثيين : وكانت نيدس Cnidus لا تزال على قدر من الغنى يمكنها من

أن تحالف رومة ، أما هلكرنسس فكانت قد انحدرت فلم تنجب أرقى من ديونيشيس - وهي التي أنجبت هيرودوت - وكان ديونيشيس هذا ناقداً أدبياً بارعاً ولكنه كان مؤرخاً تعوزه اقدرة على النقد والتحخيص . وكانت ميلتس قد تجاوزت عهد شبابه ، وإن كانت لا تزال ثغراً نشيطاً ؛ وكان وحى أيلو في دديما Didyma القريبة منها لا يزال يجيب عن الأسئلة إجابات ملغزة ، وكان القصاصون في هذا الإقليم ينسجون « القصص الميلبية » الغزلية ذات الخيال الوثاب التي تطورت بعد قليل من الوقت فكانت هي الروايات اليونانية القصصية الطويلة . وكانت پريني Priene بلدة صغرى ، ولكن أهلها أخذوا يتبارون في تجميلها بالمباني الفخمة . وفي هذه المدينة انتخبت في القرن الأول الميلادى امرأة تسمى فيلى Phile لتشغل اسمى المناصب فى البلدة وذلك لأن نفوذ رومة و ثراءها قد أخذوا يرفعان من منزلة المرأة فى الأراضى الهلينية . وكانت مجنيزيا القائمة على ضفة الميندر تضم هيكلًا يعده الكثيرون أقرب هياكل آسية إلى الكمال - وكان مخصصاً لعبادة أرتيمس (١٢٩ ق . م) . وقد خططه هرموجنيز Hermogenes أعظم مهندسى ذلك العصر . وكان الجامعة من أهل ميكالى لا يزالون يجتمعون فى كل سنة ليكون منهم اتحاد عام ومجلس دبنى لأيونيا .

واشتهرت كوس إحدى الجزائر القريبة من ساحل كاريا بنسج الحرير وبمدرسها الطبية الغنية بتقاليد أبقراط ؛ وكانت رودس (الوردة) حتى فى إبان ضمها أجمل مدائن العالم اليونانى . ولما أن أراد أغسطس بعد الحرب الأهلية أن يخفف من بؤس المدن الشرقية بالسماح لها بإلغاء الديون كلها ، أبت رودس أن تفيد من هذا التيسير ؛ وأدت كل ما عليها من التزامات بصدق وأمانة . وكان من أثر هذا أن استعادت بعد زمن قليل مكانتها بوصفها المصرف المالى لتجارة بحر إيجه ، وعادت كما كانت من قبل الميناء الذى ترسو فيه البواخر المسافرة بين آسية ومصر . وقد اشتهرت المدينة بتمثالها الضخم المحطم ، ومبانيها الجميلة ،

وتماثيلها الرائعة ، وشوارعها المنظمة النظيفة ، وحكومتها الأرستقراطية القديرة ، ومدارس الفلسفة والخطابة الدائمة الصيت . وفي هذه المدارس علم أبلونيوس مولو قيصر ، وشيشرون تلك الأساليب الفنية التي أثارها في كل ما كتب بعدها من نثر لاتيني .

وكان أشهر عظماء رودس في ذلك العصر هو بريسيدويوس صاحب أكبر عقل منسحق مبدع في التاريخ القديم كله . وكان مولده في إياميا Apamea من أعمال سوريا عام ١٣٥ ق . م ، وكان أول ما اشتهر به سرعة عدوه في المسافات البعيدة ، وبعد أن درس على پنيتيوس Panetius في أثينة اتخذ رودس وطناً له ، وعمل فيها حاكماً وسفيراً ، وطاف بعدة ولايات رومانية ، ثم عاد إلى رودس ، واجتذب إلى محاضراته في الفلسفة الرواقية عظماء الرجال أمثال بيمبي وشيشرون . وذهب في الثالثة والثمانين من عمره ليعيش في رومة ومات فيها في السنة التالية . ومن مؤلفاته كتاب التاريخ العام المفقود الذي يقص تاريخ رومة وممتلكاتها من عام ١٤٤ إلى عام ٨٢ ق . م ؛ وكان العلماء القدامى يضعونه في منزلة كتاب بوليبيوس . وكان وصفه لرحلاته في غالة ، ورسالته عن المحيط من المصادر التي استمد منها استرابون كتاباته . وكان تقديره بعد الشمس عن الأرض - ٥٢٠٠٠٠٠٠٠ - أقرب إلى تقدير هذه الأيام من تقدير أي عالم قبله . وقد سافر إلى قادس Cadis ليدرر المد والجزر ، وفسر هذه الظاهرة بأنها من فعل الشمس والقمر مجتمعين . وقدر عرض المحيط الأطلنطي بأقل من عرضه الحقيقي ، وتنبأ بأن في مقدور المسافر من أسبانيا أن يصل إلى الهند بعد أن يقطع ثمانية آلاف ميل . وكان رغم إلمامه بالعلوم الطبيعية يؤمن بكثير من الأفكار الروحية السائدة في عصره . - فكان يعتقد بالشياطين وبالقدرة على معرفة الغيب ، وبالتنجيم ، وقراءة الأفكار ، بمقاربة الروح على أن ترقى حتى تتحد اتحاداً

صوفيا بالله ؛ وعرف الله بأنه القوة الحيوية للعالم . وقد عدّه شيشرون أعظم الفلاسفة الرواقيين وكان في هذا مبالغاً في كرمه ، وفي وسعنا نحن أن نعهده من رواد الأفلاطونية الجديدة ، وأن نرى فيه قنطرة انتقال من زينون إلى أفلوطينس .

وإذا سار المسافر محاذيا ساحل آسية وميما شطر الشمال من كارييا دخل ليديا وأقبل على لإفسوس أعظم مدائنها . وقد ازدهرت في أيام الرومان كما لم تزدهر من قبل . ومع أن برجهوم كانت العاصمة الرسمية لولاية «آسية» الرومانية فإن لإفسوس أضحت مقر الحاكم الروماني والموظفين التابعين له ؛ هذا إلى أنها كانت أهم ثغور الولاية ، ومكان اجتماع جمعيتها الوطنية . وكان سكانها خليطا من أجناس مختلفة ، بلغ عددهم ٠٠٠ ر ٢٢٥ ، ويختلفون من السوفسطائين الحيرين الحبين للإنسانية إلى الغوغاء الصحابين الخرفين . وكانت شوارع المدينة حسنة الرصف والإنضاد ، وكانت لها بواك مظلة تمتد أميالا عدة . وكان فيها كثير من المباني العامة التي توجد في غيرها من المدن ، وقد كشف بعضها من تاريخ قريب لا يبعد عن عام ١٨٩٤ : ومن هذه المباني «متحف» أو مركز علمي ، ومدرسة طب ، ودار كتب ذات واجهة عجيبة مسرفة في النقش والزينة ، وملهى يتسع لسته وخمسين ألقاً من النظارة . وهنا أثار دميتريوس صانع التماثيل العامة على القديس بولس بعد هذا العهد . وكان مركز المدينة وأهم مصرف مالى فيها هو هيكل أرتميس ، وكان يحيط به ١٢٨ عموداً كل واحد منها مهدي من أحد الملوك . وكان يقوم على خدمة كهنته الحصيان قسيسات عذارى وحشد من الأرقاء ، وكانت طقوسهم مزيجاً من الطقوس الشرقية واليونانية ؛ وكان للتمثال البربرى الذى يمثل هذه الإلهة صفان من الأنداء الكثيرة العدد ترمز إلى الخسوبة . وكان الاحتفال بعيد أرتميس يجعل أيام مايو كلها أيام بهجة ، ومرح ، وحفلات ، وألعاب .

وكان جو أزمير أطيب مر جو غيرها من البلدان رغم كثرة من كان فيها

من صياحه السمك : وقد وصفها أبولونيوس التياناى Apollonius of Tyana الذى كان نجواب آفاق بأنها « أجمل مدينة تحت الشمس » (٥٩). وكانت تزدهى على غيرها من المدن بشوارعها الطويلة المستقيمة ، وأعمدها ذات الطبقتين من القرميد ، ومكتبتها ، وجامعتها . وقد وصفها رجل من أشهر أبنائها ، وهو إيلبوس أرسطيدز Aelius Aristides (١١٧ - ١٨٧ م) وصفا يكشف عما كانت عليه المدن الرومانية الهلنستية من روعة وبهاء ، فقال :

سرفها من الشرق إلى الغرب تمر بهيكل فى لآثر هيكل ، ومن تل فى لآثر تل ، مخترقاً شارعاً أجمل من اسمه (الطريق الذهبى) . ثم قف فوق حصنها تر البحر يمتد تحتك ، والضواجى تنتشر حولك . والمدينة إذا نظرت إليها ثلاث نظرات ملأت قلبك سروراً وغبطة . . . وكل شىء فيها من طرفها الداخلى إلى شاطئ البحر كتلة براقعة من ساحات للألعاب ، وأسواق ، وملا . . . وحمامات بلغت من الكثرة حداً لا يسهل عليك معه أن تعرف فى أيها تستحم ، وفوارات وطرقات عامة ، ومياه جارية فى كل بيت من بيوتها . وإن ما فيها من مناظر جميلة ، ومباريات ، ومعارض ليجل عن الوصف ؛ أما الصناعات اليدوية فحدثت عن كثرتها ولا حرج . وهذه المدينة هى أنسب المدائن كلها لمن يريدون أن يعيشوا فى هدوء وطمأنينة ليكونوا فلاسفة لا يعرفون الغش والحداع (٦٠) .

وكان إيلبوس واحداً من كثيرين من البلغاء والسوفسطائيين الذين اجتذبت شهرتهم الطلاب إلى أزمير من جميع بلاد هلاس ؛ وكان معلمه پوليمو Polemo ونجلا بلغ من العظمة - كما يقول فيلوستراتس - « درجة جعلته يتحدث والمدائن أقل منه ، والأباطرة لا يعلنون عليه ، والآلهة أنداد له (٦١) . وكان إذا حاضر فى أثينة استمع إليه هرودس أنكس Herodes Atticus أعظم منافسيه فى البلاغة ، وكان من تلاميذه المعجبين به . وأرسل إليه هرودس ١٠٠٠ ز ١٥٠٠ درخمة (٩٠٠ ر ٩٠٠ ريبال أمريكى) نظير استماعه بميزة الاستمتاع إلى محاضراته ؛

ولما لم يشكر له پوليمو عمله هذا ، قال له أحد الأصدقاء إن المحاضر قد استقل المبلغ ، فبعث إليه هرودس مائة ألف أخرى ، قبلها پوليمو في هدوء على أنها حق له . وقد استخدم پوليمو ثروته في تزيين المدينة التي اتخذها وطناً له ؛ واشترك في حكمها ، ووفق بين أحزابها ، وكان سفيراً لها . وتقول الرواية المأثورة إنه أيقن أنه لا يطيق الصبر على داء المفاسل الذي كان مصاباً به ، فدفن نفسه في قبر أسلافه في لأوديسيا ، وأمات نفسه جوعاً في سن السادسة والخمسين (٦٢) .

وكانت سرديس ، عاصمة كروسس القديمة ، لا تزال « مدينة عظيمة » في عهد استرابون . وقد تأثر شيشرون بعظمة متليني وجمالها ووصفها لنجس Longus في القرن الثالث وصفاً يذكرنا بجمال مدينة البندقية (٦٣) ؛ وكانت برجوم يتلأل فيها المذبح العظيم ، والمباني الفخمة التي شادها ملوكها من أسرة أتالس Attalus ، وأنفقوا عليها من الخزائن التي امتلأت بالمال من كدح العبيد في غابات الدولة ، وحقولها ، ومناجمها ، ومصانعها ؛ وقد استبق أتالس الثالث التوسع الروماني والانقلاب الاجتماعي بأن أوصى بمملكته إلى رومة في عام ١٣٣ ق . م ؛ غير أن أرسنكس ابن الملك يوميز الثاني من إحدى المحظيات نقض الوصية وقال إن أتالس أرغم عليها ؛ ثم خرض العبيد والأحرار الفقراء على الثورة ، وهزم جيشاً رومانياً (١٣٢) ، واستولى على عدد كبير من المدن ، ووضع قواعد دولة اشتراكية بمعونة بلوسسيوس Blossius معلم ابني جراكس . وانضم إلى رومة ملكا بيشنيا وبننس المجاورتين لبرجوم ، كما انضم إليها طبقات رجال الأعمال في المدن المحتلة فأخذت رومة بمعونتهم هذه الثورة ومات أرسنكس في أحد السجون الرومانية . وعاقبت الثورة والحروب المتردات حياة برجوم الثقافية مدى نصف قرن من الزمان ، ونهب أنطونيوس مكتبتها الشهيرة ليعوض بها الإسكندرية عن الكتب التي احترقت منها أثناء إقامة قيصر فيها . وما من شك في أن برجوم قد انتعشت قبيل عهد فسپازيان ، وشاهد ذلك أن بلني الأكبر حكم بأنها أكثر

مدائن آسية ازدهاراً . وقامت فيها أيام الأنطونيين حركة بناء جديدة ، ونشأت في الإسكليسيوم مدرسة طبية خرج منها جالينوس ليداوى أمراض العالم .

واستحالت اسكندرية ترواس Alexandria Troas على يد أغسطس مستعمرة رومانية تخليدا لأصل رومة الطروادى المزعوم : ، وقد استندت رومة إلى هذا الأصل المزعوم في مطالبها بجميع البلاد التى وصفناها في هذا الفصل . وقد أعيد بناء طروادة القديمة على تل قريب من هذه البلدة (حصار لك) ، وسميت باسم اليوم Illium الجديدة ، وأضحت بعد بنائها مقصداً للسياح ، وكان الأدلاء يرشدونهم إلى كل بقعة حدثت فيها لإحدى الحوادث الواردة فى الإلياذة ، ويطلعونهم على الكهف الذى حاكم فيه باريس هيرا ، وأفرديتى ، وأثينة . وقد بنى سزكس Cyzicus سفنا على البروبيتس وأرسل منها إلى جميع البحار المعروفة أسطولا تجارياً لم يكن ينافسه إلا أسطول رودس . وهنا شاد هادريان هيكلًا لپرسفى ، كان من أعظم الهياكل التى تفتخر بها آسية . ويقول ديوكاسيوس إن قطر كل عمود من أعمدته كان ست أقدام وارتفاعه خمساً وسبعين قدماً ، ومع هذا فقد كان العمود منحوتاً من كتلة واحدة من الحجر (٦٤) . وكان هذا الهيكل قائماً على ربوة ، ولهذا بلغ من الارتفاع حداً رأى معه إيلياوس أن لا ضرورة لإقامة منارة لهداية السفن . وقامت فى أيام السلم الرومانية مائة مدينة مزدهرة على الطريق الممتد من البحر الأحمر إلى البحر الأسود .

الفصل السابع

مثر داتس العظم

كانت بيثينيا وپنتس تمتدان على السواحل الشمالية لآسية الصغرى ؛ وكانت أرضهما جبلية فى الداخل ، لكنها كانت غنية بالحشب والمعادن . وقد طغى على سكانها الحشبين الأفدمين خليط من التراقين ، واليونان ، والإيرانيين وحكمت بيثينا أسرة ملكية يونانية - تراقية ، وشادت لها عاصمة فى نيقوميديا ، ومدينتين كبيرتين فى يروصه Prusa ونيقية . وأقام شريف ليرانى سعى مثر داتس دليلا على التقى والورع مملكة له حوالى عام ٣٠٢ ق.م شملت كپدوكيا وپنتس ، وأنشأ أسرة من الملوك البواسل نشروا الثقافة اليونانية فى البلاد ، واتخذوا كومانا پنتيكا Comana Pontica وسينوب عاصمتين لهم . وانتشر ملكهم حتى اصطدم بمصالح رومة الاقتصادية والسياسة ؛ فشبت على أثر ذلك نار الحروب المثر داتية التى سميت بهذا الاسم الموائم لها كل الموامة نسبة إلى الملك الجبار الذى جمع آسية الغربية وبلاد اليونان الرومانية ، ونشر فيها جميعاً لواء فتنة صماء لو أنها نجحت لبدلت تقار يخ أوربا تبديلا .

وكان مثر داتس السادس قد ورث عرش پنتس وهو غلام فى الحادية عشرة من عمره ، وحاولت أمه هى والأوصياء عليه أن يقتلوه لتجلس هى على العرش مكانه ، لكنه قفز من قصره ، واختفى عن الأبصار ، وعاش أحد عشر عاماً فى الغابات يصطاد اله جوش ، ويتخذ من جلودها لباساً . وحدث فى عام ١١٥ ق.م انقلاب سياسى مفاجئ أدى إلى خلع أمه وإعادته إلى ملكه . وكانت تحيط

به المؤامرات التي هي من خصائص القصور الشرقية(*) ، فاحتاط لها بأن كان يتجرع قليلاً من السم في كل يوم ، حتى كاثبت له حصانة من معظم أنواع السم التي كانت في متناول المتهربين إليه . وقد كشف في أثناء تجاربه هذه كثيراً من العقاقير المضادة للسم والشفافية منه . ثم امتدت هوايته من هذا إلى الطب بوجه عام ، فجمع فيه معلومات بلغ من قيمتها أن أمر عبي بترجمتها إلى اللغة اللاتينية . وكانت حياته البرية الصارمة قد أكسبته قوة في الجسم وفي الإرادة ؛ وأن بلغ من الفخامة درجة رأى معها أن يرسل دروعه السابعة إلى دلفي ليشاهدنها العابدون ؛ وكان فارساً ماهراً ، ومحارباً شجاعاً ، ويؤكد لنا عارفوه أنه كان في مقدوره أن يعدو بسرعة يدرك به ظباء الفلاة ، وأنه يستطيع أن يسوق عربة يجرها ستة عشر جواداً ، ويقطع مائة وعشرين ميلاً في اليوم الواحد(٦٥) . وكان يفخر بقدرته على أن يأكل أكثر مما يأكل أى إنسان آخر ويشرب أكثر مما يشرب ، وكان له عدد كبير من النساء . ويقول المؤرخون الرومان إنه كان قاسى القلب ، غداراً ، وإنه قتل أمه ، وأخاه ، وثلاثة من أبنائه ، وثلاثاً من بناته(٦٦) ، ولكن رومة لم تنقل لنا ما عسى أن يقوله هو دفاعاً عن نفسه . ولقد كان مثقفاً بعض الثقافة ، في مقدوره أن يتكلم اثنتين وعشرين لغة ، ولم يستخدم قط مترجماً بينه وبين من يتحدث إليه من الأجانب(٦٧) . وقد درس الآداب اليونانية ، وكان مولعاً بالموسيقى اليونانية ، وأغنى بالمال والنفائس الهياكل اليونانية ، وكان في بلاطه عدد كبير من علماء اليونان ، وشعرائهم ، وفلاسفتهم . وقد جمع كثيراً من التحف الفنية ، وسلك نقوداً ذات أشكال جميلة ممتازة . ولكنه لم يتورع عن الشهوانية والفظاظة التي كان يمتلي بها جوه النصف

(*) ما يؤسف له أن المؤلف ينسى من أن إلى أن صفة المؤرخ الزيه فيغز الشرق غمزات كان خليقاً به أن ينزه قلمه عنها . فلنستعلم أن الشرق قد اختصت قصور ملوكه بالدسائس ، وفي التاريخ كثير من الشواهد على أن هذه الدسائس لم تكن تقل في قصور ملوك الغرب عنها . في الشرق . (المترجم)

الهمجى ، وصدق خرافات أهل زمانه . نولم يكن يحمى نفسه من رومة بما كان خليقاً أن يقوم به التباؤد أو السياسى العظيى من حركات صادرة عن نفاذ البصرة وبعد النظر ، بل كان يحمى بالشجاعة الارتجالية التى يعمد إليها الحيوان إذا وقع فى المخطور .

ومثل هذا الرجل لا يمكن أن يقنع بالمملكة الصغيرة التى خلفتها له أمه . ولهذا فتح أرمينية وبلاد القوقاز مستعينا على ذلك بضباط وجنود مرتزقين من اليونان ، ثم عبر نهر قوبان ومضيق كرتش إلى بلاد القرم وأخضع لحكمه جميع المدن اليونانية القائمة على سواحل البحر الأسود الشرقية ، والشالية ، والغربية . وإذا كان انهيار قوة اليونان العسكرية قد ترك هذه الجماعات وهى تكاد تكون عاجزة كل العجز عن حماية نفسها من البرابرة الذين يجاورونها من خلفها . فإنها قد استقبلت جيوش مثر داتس اليونانية استقبال الهامة المنقذين . وكانت من المدن التى خضعت له سينوب ، وطربزون ، وپنتيكيم Panticapem (كرتش) ، وپزنطية . ولكن سيطرة پيثينيا على الهلسينت (الدرديل) تركت تجارة پنتس فى البحر الأبيض المتوسط تحت رحمة الملوك المعادين لها . فلما مات ني قوميدس الثانى ملك پيثينيا (٩٤ ق . م) تنازع ولداه على العرش ، واستغاث الثانى وهو سقراط بملك پنتس . وانتهاز مثر داتس فرصة النزاع الحزبى فى إيطاليا فغزا پيثينيا لكى يجلس سقراط على العرش . ولم تشأ رومة أن ترى البسفور فى أيدى أعدائها فأمرت مثر داتس وسقراط أن يخرجوا من پيثينيا . وصدع مثر داتس بالأمر أما سقراط فرفضه ، فلم يكن من حاكم أسية الرومانى إلا أن خلعه وتوج ني قوميدس الثالث . وغزا الحاكم الرومانى الجديد پنتس وشجعه على ذلك منيوس أكوليوس Manius Aquilius الحاكم الرومانى ، وبدأت بذلك الحرب المثر داتية الأولى .

وأحسن متردانس أن الفرصة الوحيدة التي تتيح له البقاء هي إثارة الشرق الهليني على سادته الإيطاليين ، فأعلن أنه منقذ هلاس وسير جيوشه لتحرير المدن اليونانية في آسية بالقوة إذا كان لا بد من استخدامها ؛ ولما أن قاومته طبقات رجال الأعمال في المدن ولى وجهه شطر الأحزاب الديمقراطية ، وأخذ يمينها بإصلاحات شبه اشتراكية . وفي هذه الأثناء كان أسطوله المكون من أربعمئة سفينة قد دمر القسم المرابط في البحر الأسود من الأسطول الروماني وأوقع جيشه المؤلف من ٢٩٠٠٠٠ رجل هزيمة منكرة بقوات نيكوميدس وأكوليوس . وأراد الملك الظافر أن يعبر عن احتقاره لشراة الرومان وبخلهم (٦٨) فصب الذهب المصهور في أفواه أكوليوس الأسير - ولم يكن قد مضى على انتصاره على أرقاء صقلية الثائرين إلا وقت قصره . ورأت المدن اليونانية في آسية الصغرى أن الرومان أصبحوا عاجزين عن حمايتها ، ففتحت أبوابها لجيوش متردانس ، وأعلنت ولاءها له وللقضية التي نصب نفسه للدفاع عنها ، وقامت في يوم حده لها ، وبناء على أمره ، بقتل كل من فيها من الإيطاليين رجالا كانوا أو نساء أو أطفالا وقد بلغ عددهم ثمانين ألفاً (٨٨ ق . م) ، وفي ذلك يقول أبيان :

« ومزق الإفوسيون أجسام الفارين الذين احتموا في هيكل أرتميس وأمسكوا بصورة المعبودة ، ثم جزوا رؤوسهم . ورمى أهل برجوم بالسهم الرومان الذين احتموا في معبد اسكلپوس Aesculpius . واقفى أهل أدريميتيوم Adramyttium من أراد النجاة بالسباحة في البحر وقتلوهم وأغرقوا أطفالهم . وطارد أهل كونس Caunus (في كاريا) الإيطاليين الذين احتموا حول تمثال ثستا ، وقتلوا الأطفال أمام أعين أمهاتهم • ثم أتبعوهم بالأمهات ، ثم بالرجال . . . وقد اتضح من هذه الأعمال أن الذي دفعهم إلى ارتكاب هذه الفظائع لم يكن خوفهم من متردانس فحسب بل كان أيضاً كرههم للرومان » (٦٩) .

وما من شك في أن الطبقات الفقيرة التي قاست أكثر من غيرها مظالم

الحكم الروماني كانت لها اليد الطولى في هذه المذابح الجنونية ، وما من شك أيضاً في أن طبقات الملاك التي ظلت زمناً طويلاً تتمتع بحماية الرومان لها قد استولى عليها الرعب حين أبصرت هذا الانتقام الرهيب . وأراد مثرذاتس أن يهدى نائراً الطبقات الغنية بإعفاء المدن اليونانية من الضرائب مدة خمس سنين ، وبمنحها الاستقلال الذاتي التام ، لكنه « أعلن » في الوقت نفسه ، كما يقول أبيان « إلغاء الديون ، وحرر العبيد ، وصادر كثيراً من الضياع ، وأعاد توزيع الأراضي الزراعية على السكان » . ودبر زعماء العشائر مؤامرة لاغتياله ، فلما كشف سرها أمر بقتل ألف وستائة من هؤلاء الزعماء . واستولت الطبقات الدنيا يساعدها الفلاسفة وأساتذة الجامعات^(٧١) على زمام السلطة في كثير من المدن اليونانية ، ومنها أثينة واسبارطة نفسها ، وأعلنت الحرب على رومة وعلى الطبقات الغنية معاً ، وقتل يونان ديلوس في نشوة الحرية عشرين ألف إبطالي في يوم واحد . واستولى أسطول مثرذاتس على جزائر سكلديز كما استولى جيشه على عوبية ، وتاليا ، ومقدونية ، وتراقية . وكان خروج « آسية » الغنية عن سيطرة الرومان سبباً في وقف الخراج الذي كان يرسل منها إلى الخزانة الرومانية ، وفوائد الأموال التي كان يحصل عليها المستثمرون الرومان ، فانتابت إيطاليا أزمة مالية كانت ذات أثر في الحركة الثورية التي قام بها سترنيوس Saturninus وسنا Cinna . وانقسمت إيطاليا على نفسها لأن السمينين واللوكانيين عرضوا على ملك بنتس أن يعقدوا معه حلفاً .

ورأى مجلس الشيوخ الروماني الحرب والثورة تواجهانه في كل مكان ، فباع ما تجمع في الهياكل الرومانية من الذهب والفضة ليحول بها جيوش صلا . ولستنا نرى من واجبتنا أن نعبد هنا كيف استولى صلا على أثينة ، وهزم جيوش الثوار ، وأتخذ الإمبراطورية لرومة ، وعقد مع مثرذاتس صلحاً قوامه اللين انسحب الملك على أثره إلى عاصمة بنتس ، يجهز في هلدوء جيشاً وأسطولاً جديدين .

وقرر مورينا Murena المبعوث الروماني في آسية أن يهاجمه قبل أن يشتد ساعده ؛ فلما أن هزم مورينا في هذه الحرب المترداتية الثانية (٨٣ - ٨١) ، لامه صلاحه على خرقه شروط المعاهدة وأعلن انتهاء الأعمال العدوانية . وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت أوصى نيقوميديس الثالث ببيثينيا إلى رومة ؛ وأدرك متردانس أن مملكته نفسها ستبتلعها رومة عن قريب إذا امتد سلطانها إلى حدود بفلجونيا وبنتنس بعد أن سيطر على اليفسور . وبذل في الحرب المترداتية الثالثة (٧٥ - ٦٣) آخر جهوده ، وحارب اوكلس وبيبي اثني عشر عاماً ، وغدر به أحلافه وأعوانه ففر إلى بلاد القرم . وحاول الجندى الشيخ ، وكان وقتئذ في التاسعة والستين من عمره ، أن يعد جيشاً يخترق به بلاد البلقان ، ويفزو إيطاليا من الشمال ، ولكن ابنه فرناسس شق عصا الطاعة عليه ، وأبى جيشه أن يساق إلى هذه المغامرة ؛ وحاول الملك بعد أن تخلى عنه الجيش أن ينتحر ، ولكن السم الذي تجرعه لم يكن له أثر فيه لما كان قد كسبه قبل من الحصانة ، وكانت يده أضعف من أن تضغط على النصل الذي أراد أن يقتل به نفسه ، ثم أجهز عليه أصدقائه ومحاسبيه الذين أمرهم ولده أن يقتلوه بأن طعنوه بسيوفهم وحراهم .

الفصل الثامن

النشر

مما يذكر بالحمد للحكم الروماني أن مدن آسية الصغرى لم يمض عليها إلا قليل من الوقت حتى أفاقت من حمى هذه الحروب المتقطعة . وصارت نيقوميديا عاصمة ولاية بيثينيا - بنتس ، ثم أصبحت عاصمة الإمبراطورية في عهد دقلديانوس ؛ وخلد اسم نيقية فيما بعد أن انعقد فيها أخطر مجلس في تاريخ الكنيسة المسيحية ، وأخذت المدينتان تتنافسان في تشييد المباني منافسة اضطر معها تراچان أن يرسل بلني الأصغر ليحول بينهما وبين الإفلاس . وأهدت نيقوميديا إلى الأدب ابنا فلافيوس أريانس الذي سجل أحاديث إيكتمس ، كما سبق القول ، وكان أريان هذا حاكما على كپدوكيا ست سنين ، وأركونا لأثينة سنة واحدة ، ولكنه رغم هذه المشاغل وجد متسعا من الوقت لكتابة عدة كتب في التاريخ لم يبق منها إلا *تصرف الإسكندر* المذيل *بالإنديا Indica* . وقد كتبه بلغة يونانية واضحة سهلة لأنه اتخذ أكسنوفون مثلا له في أسلوبه ، كما اتخذ مثلا له في حياته . ويقول هو عن كتابه مفتخرا به كما يفخر الأقدمون :

« لقد كنت منذ صباى أنزل هذا الكتاب منزلة الوطن والأسرة والمناصب العام ، ولهذا فلإني لا أرى نفسى غير خليق بأن أعد بين أعظم المؤلفين في اللغة اليونانية » (٧٢) .

وكانت هناك مدن أخرى على شاطئ البحر الأسود ذات مياه عظيمة وعلماء ذائع الصيت . كان منها ميرليا Myrlea التي يبلغ عدد سكانها ١٠٠٠٠٠ ر ٣٢٠ ر ٢ (٧٣) وأمسارتس Amsartis (أمسرا Amsara) التي وصفها بلني بأنها « مدينة أنيقة جميلة » ، والتي اشتهرت بما كان فيها من أشجار البقس الجميلة ؛ وسينوب

التي كانت مركزاً غنيا لصيد السمك ومنفذاً لنخشب الإقليم المجاور لها ومعادنه ،
وأميسس Amisus (سمسون) وطريزس (طربزون) وكان أهلها يكسبون
عيشهم بالتجارة مع سكوذيا (جنوبي روسيا) المقابلة لها على شاطئ البحر ،
وأماسيا Amasea التي وُلد وعاش فيها استرابون أعظم الجغرافيين الأقدمين .

وكان استرابون ينتمي إلى أسرة غنية تنحدر ، كما يؤكد هو ، من
ملوك بننس ؛ وكان مصاباً بحول غريب(*) لا يزال يسمى باسمه حتى
الآن (٧٤) ، وكان كثير الأسفار ، ويلوح أن أسفاره كانت في بعثات
دبلوماسية ، وكان ينتهز كل فرصة مستطاعة لجمع المعلومات الجغرافية
والتاريخية . وكتب تاريخاً مكثراً لتاريخ پوليبوس ولكنه فقد ؛ ثم أخرج في
عام ٧ ق . م كتابه العظيم الجغرافيت الذي حفظت لنا الأيام جميع أجزائه
السبعة عشر تقريباً . وقد بدأه كما بدأ أريان كتابه بالتحدث عن مزاياه فقال :

إني أستسمح قرأني ، وأطلب لإيهم ألا يلوموني لطول نبئتي بدل أن
يلوموا أولئك الذين يحرصون أشد الحرص على معرفة كل ما هو شهير
وقديم . . . ولا بد لي في هذا الكتاب من أن أغفل الصغير من الأشياء ،
وأن أخص بالناية ما هو نبيل وعظيم . . . سواء كان نافعا ، أو ذائع
الصيت ، أو باعثاً للبهجة والمتعة : وكما أننا إذا أردنا أن نحكم على قيمة
تمثال ضخم لا نبحت كل جزء من أجزائه بدقة وعناية ، بل ننظر إلى
الأثر العام الذي ينطبع في أذهاننا منه . . . فكذلك يجب أن يحكم على كتابي
هذا بالطريقة عينها . ذلك بأنه هو أيضاً عمل ضخم . . . خليق بأن يكون
عمل فيلسوف (٧٥) .

وهو يعترف في صراحة بأنه يأخذ عن پوليبوس ، وبسيدونيوس ، لكنه
أقل صراحة فيما يأخذ عن أرتستينز ، ويشتهد عليهم جميعاً في نقد أخطائهم ،

ويقول إن أخطائه هو يجب أن يلام عليها من أخذ عنهم (٧٦) . وهو يعترف بالمراجع التي أخذ عنها في ضراحة نادرة ويختار هذه المراجع في العادة بدقة وحسن تمييز . ومن أقواله أن امتداد الإمبراطورية الرومانية قد وسع المعلومات الجغرافية ، وأنه يعتقد مع ذلك أن قارات بأكملها لا تزال مجهولة - وربما كانت هذه القارات في المحيط الأطلنطي - وأن الأرض شبه كرة ، (ولكن اللفظ اليوناني قد يكون معناه « كريا ») وأن الإنسان إذا سافر من أسبانيا متجهاً نحو الغرب وصل بعد وقت ما إلى الهند . ويقول عن شواطئ البحار إنها في تغير دائم بفعل التعرية أو الانفجار ؛ ويظن أن اضطراب باطن الأرض قد يشق برزخ السويس ويصل البحرين . وكان كتابه تلخيصاً جريئاً لما يعرفه الناس في عصره عن الأرض ، وما من شك في أنه من جلائل الأعمال في العلم القديم .

وكان ديو كريستوم - ديو ذو الفم الذهبي - (٤٠ - ١٢٠ م) أعظم شهرة في عصره من استرابون . وكانك أسرته قد اشتهرت في بروصة من زمن طويل ؛ فقد أفنى جده ثروته بما قدمه من الهبات لمدينته ، ثم جمع بعدئذ ثروة جديدة ؛ وحذا أبوه حذو جده ، وفعل ديو ما فعله الأب والجد (٧٧) . ولما كبر صار خطيباً وسوفسطانيا ؛ وسافر إلى رومة ، واعتنق مذهب الرواقية على يد موسينيوس روفس ، ونفاه دومتيان من إيطاليا وبيشنيا في عام ٨٢ ؛ ولما حرم عليه أن ينتفع بملكه أو دخله ، أخذ يضرب في الأرض ثلاثة عشر عاما وينتقل من قطر إلى قطر انتقال الفيلسوف المفلس ، يأبى أن يتقاضى أجراً على خطبه ، ويكسب قوته في معظم الأحوال بعمل يديه . ولما جلس نيرفاً على العرش بعد دومتيان ، تبدل نفي ديو تكريماً ، فقد اصطفاه نيرفاً وتراجان ووهبا مدينته هبات جمة إجابة لطلبه . ولما عاد إلى بروصة أنفق معظم ثروته في تجميلها ، واتهمه فيلسوف آخر باختلاس الأموال العامة فحاكمه بلني ، ويلوح أنه بريء من هذه التهمة . وخلف ديو وراءه ثمانين خطبة . ويبدو لنا في هذه الأيام أن معظمها ألفاظ

سجوفاء ليس فيها كثير من المعاني ؛ ويؤخذ عليها ما فيها من إطناب ، وتشبيهات خداعة ، وحيل بيانية ؛ فهي تمط نصف المعنى حتى تملأ به مائة صفحة ؛ فلا عجب بعدئذ إذا صاح أحد المستمعين بعد أن سم هذا الطول : « إنك قد جعلت الشمس تغرب طول أسنانك التي لا آخر لها » (٧٨) . ولكن الرجل كان فصيح اللسان ساحر البيان ، ولولا ذلك لصعب عليه أن يكون أشهر خطباء القرن الذي عاش فيه ، ولما كانت الحروب تقف لكي يستمع الناس إلى خطبه . وقد قال له تراجان في يوم من الأيام قولاً صادقا صريحا : « لست أفهم ما تقول ، ولكنني أحبك بقدر حبي لنفسى » (٧٩) . وكان البرابرة الضاربون على ضفتي البورسثنيز Borysthenes (الدينير) يستمعون إليه في ابتهاج لا يقل عن ابتهاج اليونان وهم مجتمعون في أولبيا ، أو ابتهاج أهل الإسكندرية المعروفين بسرعة الانفعال . وحدث أن جيشاً أوشك أن يتمرد على نيرقا ، فهدأت سورته بعد أن استمع إلى خطبة ارتجلها الخطيب الطريد النصف العارى .

وأكبر الظن أن الذي أغرى الناس بالالتفاف حوله لم يكن أسلوبه اليوناني الأتكي الجميل بل كان هو جرأته في التشهير ، ويكاد أن يكون هو الخطيب الوحيد في العهود الوثنية القديمة الذي ندد بالدعارة ؛ وما أقل كتاب زمانه الذين هاجموا نظام الاسترقاق يمثل ما هاجمه هو من القوة والصراحة . (يبد أنه غضب بعض الغضب حين وجد أن عبده فروامنه) (٨٠) . وكانت خطبته في أهل الإسكندرية تنديداً عتيقاً بترفهم ، وتخريفهم ، ورذائلهم . وقد وقف يوماً في اليوم Ilium وألقى خطبة قال فيها إن طروادة لم توجد قط ، وإن « هومر كان أجراً كاذب في التاريخ » ؛ ثم وقف يوماً آخر في قلب رومة وأخذ يذكر فضائل الريف على المدن ، وصور فقر الريف تصويراً مؤثراً في أسلوب قصصي واضح جذاب ، وأندر مستمعيه أن الناس أخذوا يهاون الأرض ، وأن



(شکل - ۸) چندی رومانی و داشیان ، نفس بارز من عمود تراچان

الأساس الزراعى للحضارة، قد انهار . ووقف مرة فى أولها ليخطب فى جميع
كبير من الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها ، وأخذ يصف أهل ذلك
العصر من الأبيقوريين والملحدين . وكان مما قاله فى هذه الخطبة ، إن
الصورة التى لدى الناس عن الإله قد تكون باطلة سخيقة ، ولكن الرجل
العاقل يدرك أن العقل الساذج يحتاج إلى أفكار ساذجة ورموز تصويرية .
والحق أن أحداً من الناس لا يستطيع أن يدرك صورة الكائن الأعلى ،
وحتى التمثال الجليل الذى نحته فدياس نفسه لم يكن إلا فرضاً مجسداً لا يليق
بمقامه كما لا يليق به تصوره نجماً أو شجرة . ونحن وإن كنا لا نعرف
حقيقة الله ، ندرك بفطرتنا أنه موجود ، ونشعر أن الفلسفة بغير الدين شىء
مظلم لا يرجى منه خير ؛ وأن الحرية الحقة الوحيدة هى الحكمة - أى أن
يعرف الإنسان ما هو حق وما هو باطل ؛ وأن سبيل الحرية ليست هى
السياسة أو الثورة ، بل أن سبيلها هى الفلسفة ، وليست الفلسفة الحقة هى
الأفكار التى فى بطون الكتب ، بل هى اتباع طريق الشرف والفضيلة كما
ينادى بها من داخلنا صوت هو كما يقول المتصوفة كلمة الله مستكنة فى
قلب الإنسان (أ١) .

الفصل التاسع

التيار الشرقي الجارف

استعاد الدين في القرن الثاني بعد الميلاد ما كان له من سلطان منذ أقدم العهود حين أقرت الفلاسفة بعد أن غلبتها الأبدية والآمال البشرية بعجزها عن تحقيق تلك الأبدية وهذه الآمال ، فتخلت عما كان لها من سلطان . وكان الدين قبل أن يستعيد سلطانه هذا قد انزوى وأخذ يغذى جذوه . ويتربص الفرص المواتية له . ولم يكن الناس أنفسهم قد فقدوا إيمانهم ، فقد قبلت كثيرتهم الغالبة مجمل ما وصف به هومر الحياة الآخرة (٨٢) . وكانت تقرب القرابين في خشوع قبل البدء برحلة من الرحلات ، وتضع أبله في فم الميت ليؤدي بها أجر عبوره نهر استيكس كما كانت تفعل في الزمن القديم . ودانت سياسة الحكم الرومانيه نرحب بالعون الذي تلقاه من الكهنة الرسميين وتسعى للحصول على تأييد الشعب بإقامة الهياكل الفخمة للإلهة المحلية ، وظلت ثروة الكهنة تزداد زيادة مطردة في جميع أنحاء فلسطين ، وسوريا ، وآسية الصغرى ؛ وظل السوريون يعبدون هداد Hadad وأترجاتس Atargatis ، وكان لهذين الإلهين مزار وهيب في هيراپوليس ؛ وبقيت مدن سوريا نرحب ببعث الإله تموز وتنادى قائله « لقد فام أدنيس (الرب) » ، وتحتفل في آخر مناظر عيده بالارتفاع إلى السماء (٨٣) . وكانت مواكب أخرى من هذا النوع تخلد آلام ديونيسس وموته وبعثه بطقوس يونانية . وانتشرت عبادة الإلهة ما Ma من كهيدوكيا إلى أيونيا وإيطاليا ، وكان كهنتها (المسمون بالهيكليين fauatici أى المنتمين إلى الفانوم fanum أو الهيكل) يرقصون في نشوة شديدة على أصوات الأبواق والطبول ، ويطعنون

أنفسهم بالمدى ، ويرشون دماءهم على الإلهة وعبادها المخاصين^(٨٤) . ودأب الناس على خلق آلهة جدد ؛ فألهوا قيصر ، والأباطرة ، وأنطونيوس ، وكثيراً من العظماء المحليين في حياتهم وبعد مماتهم . وأخذت هذه الآلهة يمزج بعضها ببعض بتأثير التجارة والحرب فزداد عددها ويعظم شأنها في كل مكان ، وتقام الصلوات بألف لغة لألف إله أملا في النعيم والنجاة ؛ فلم تكن الوثنية والحالة هذه ديناً واحداً ، بل كانت جملة من العقائد المتشابكة ، المتناقضة ، المتنافسة ؛ وكثيراً ما كان يتدخل بعضها في بعض وتختلط اختلاطاً متعمداً مختاراً .

وثبتت عبادة سيبييل في ليديا وفريجيا ، وإيطاليا ، وأفريقية ، وغيرها من الأقاليم ، وظل كهنتها يُخصّصون أنفسهم كما فعل حبيبها أتيس ؛ فإذا أقبل عيدها الربيعي صام عبادها ، وصلوا ، وحزنوا لموت أتيس ؛ وجرح كهنتها سواعدهم ، وشربوا دماءهم ، وحمل الإله الشاب إلى قبره باحتفال مهيب . فإذا كان اليوم الثاني ضجعت الشوارع بأصوات العرح الصادرة من الأهلين المحتفلين ببعث أتيس وعودة الحياة إلى الأرض من جديد ، وعلا صوت الكهنة ينادى أولئك العباد : « قوّوا قلوبكم أيها العباد المتصوفون ، لقد نجا الإله ، وستكون النجاة حظكم جميعاً »^(٨٥) . وفي آخر يوم من أيام الاحتفال تحمل صورة الأم العظمى في موكب للنصر ، ويحترق حاملوها صفوف الجواهر تحميتها وتناديها في رومة باسم «أمنا»^(٨٦) (Nostra Domina) .

وكانت إيزيس الإلهة المصرية ، والأم الحزينة ، والمواسية المحبة ، وحاملة هبة الحياة الخالدة ، كانت هذه الإلهة تلقى من التكريم أكثر مما تلقاه سيبييل ؛ وكانت كل شعوب البحر الأبيض المتوسط تعرف كيف مات زوجها العظيم ؛ وكيف قام بعدئذ من بين الموتى ؛ وكان يحنقل بهذا البعث السعيد في كل مدينة كبيرة قائمة على شواطئ هذا البحر التاريخي أروع احتفال وأفخمه ؛ وكان عباداه المتهجون يتنادون : « لقد وجدنا أوزريس من جديد »^(٨٧) . وكانوا يرمزون

إلى إيزيس بصور وتمثيل تحمل بين ذراعها حورس ابنها الإلهي ، ويسمونها في الأوراد والأدعية « ملكة السماء » ، و « نجم البحر » ، و « أم الإله » (٨٨). وكانت هذه الطقوس أقرب العبادات الوثنية إلى المسيحية ، لما انطوت عليه قصة الإلهة من الحنو والرأفة ، وما اختصت به طقوسها من الرقة ، وما كان يسود هياكلها من جو مرح خال من العنف ، وما تشتمل عليه صلواتها المسائية من ألحان موسيقية مؤثرة ، وما يقوم به كهنتها الحليقو الرؤوس ذوو الثياب البيض من أعمال البر والخير (٨٩) ، وما كانت تتيحه هذه الإلهة لهؤلاء الكهنة من فرص لمواساة النساء وإدخال السرور على قلوبهن ، ولترحيبها الشامل بالناس جميعاً على اختلاف أمهم وطبقاتهم . وانتشر دين إيزيس من مصر إلى بلاد اليونان في القرن الرابع قبل الميلاد ، ثم انتشر إلى صقلية في القرن الثالث ، وإلى إيطاليا في القرن الثاني ، ثم انتشر بعدئذ في جميع أجزاء الإمبراطورية . وقد عثر على صورها المقدسة على ضفاف نهرى الدانوب والسين ، وكشف عن آثار معبد لها في لندن (٩٠) .

وقصارى القول أن شعوب البحر الأبيض المتوسط لم تنقطع قط عن عبادة ما للنساء من قوة مقدسة خلافة ، وما يتصفن به من رعاية للأئمة .

وكانت عبادة مثراس Mithras الإله الذكر تنتقل في هذه الأثناء من فارس إلى أقصى تخوم الإمبراطورية الرومانية ؛ وكان مثراس هذا في المراحل المتأخرة من الدين الزرادشتي ابن أهورا - مزدا إله النور ، وكان هو أيضاً إلهاً للنور ، والحق ، والظهر ، والشرف ؛ وكان يقال أحياناً إنه هو الشمس ، وإنه يقود الحرب العالمية ضد قوى الظلمة ، وإنه يشفع على الدوام لأتباعه عند أيه ، ويحميهم ، ويشجعهم في كفاحهم الدائم للشر والكذب ، والدنس ، وغيرها من أعمال أهرا مان أمير الظلام . ولما أن نقل جنود پمبي هذا الدين من

كهدوكيا إلى أوروبا صور فنان يوناني مئراس راكما على ظهر ثور بطعنه
بخنجر في عنقه ، وأضحت هذه الصورة هي الرمز الرسمي لذلك الدين ،
وكان اليوم السابع من كل أسبوع يوماً مقدساً لإله الشمس ، وكان أتباعه
يحتفلون في الأيام الأخيرة من ديسمبر بمولده مئراس « الشمس التي لا تغلب »
والإله الذي نال نصره السنوي على قوى الظلمة في يوم الانقلاب الشتائي ،
والذي بدأ من ذلك اليوم يفيض على العالم ضياءً يزداد يوماً بعد يوم (٩١) .
ويحدثنا ترتليان Tertullian عن كهنة مئراسيين على رأسهم « حبر أكبر »
وعن عزاب وعذارى في خدمة الإله ، وكانت القرابين تقرب إليه على
مذبحه في كل يوم ، كما كان عباده يشتركون في تناول طعام مقدس من
الخبز والنييد ، وكانت الإشارة التي يختتم بها عيدها هي دقات ناقوس (٩٢) .
وكان يحتفظ على الدوام بنار متقدة أمام القبو الذي يمثل فيه الإله الشاب
يطعن الثور بخنجره . وكان الدين المئراسي يحض على الخلق الكريم ،
ويطلب إلى « جنوده » ألا ينقطعوا طول حياتهم عن محاربة الشر بجميع
أنواعه . ويقول كهنته إن الناس كلهم سيحشرون لا محالة أمام مئراس
ليحكم بينهم ، ثم تسلم الأرواح الدنسة إلى أهرمان لتعذب على يديه عذاباً
أبدياً ، أما الأرواح الطاهرة فترتفع خلال طباق سبعة حتى تصل إلى بهاء
السماء حيث يستقبلها أهورا - مزدا نفسه (٩٣) . وانتشرت هذه الأساطير
التي تبعث في نفس أصحابها الأمل والقوة في القرنين الثاني والثالث من
التاريخ الميلادي في غرب آسية ، وانتقلت منه إلى أوروبا (متخطية بلاد
اليونان) ، وشادت معابدها متجهة نحو الشمال حتى وصلت إلى سورهدريان ،
وروع الآباء المسيحيين ما وجدوه من أوجه الشبه بين دينهم وبين المئراسية ،
وقالوا إن الثانية قد سرقت هذه العبادات عن المسيحية ، أو أنها في المئراسية
حيل مضللة احتال بها عليهم الشيطان (صورة من أهرمان) . وليس من

السهل أن نعرف أى الدينين أخذ عن الآخر ، ولعل الاثنين قد تسربت إليهما أفكار كانت وقتئذ منتشرة في جو بلاد الشرق .

وكانت في كلا الدينين العظيمين اللذين يسودان لإقليم البحر الأبيض المتوسط « طقوس خفية » تتخذ عادة صورة احتفالات تطهير ، وتضحية ، وتثبيت ، ووحى ، تدور كلها حول موت الإله وبعثه . وكان الأعضاء الجدد يدخلون في دين سيبييل بوضعهم عراة في حفرة يذبح فوقها ثور ، فيسقط دم الحيوان الذبيح على الطالب الجديد ويطهره من خطاياها ويهبه حياة روحية جديدة خالدة إلى أبد الدهر . وكانت أعضاء التذكير في الثور ، وهى التى تمثل الحصوبة المقدسة ، توضع في إناء خاص ، وتهدى إلى الإلهة^(٩٤) . وكان في الميثراسية طقس شبيه بهذا يعرفه العالم اليونانى والرومانى القديم باسم الثور بليوم taurobolium أو رمى الثور ويصف أبوليوس في عبارات جزلة رائعة المراحل التى يمر خلالها خدام إيزيس - فترة الصوم المبدئية الطويلة ، والورع والتكشف ، والتطهير بالانغماس فى الماء المقدس ، ثم تظهر له فى آخر الأمر الروبى الصوفية للألهة لتهبه النعم الأبدى . ويلتزم الطالب فى إلوسس أن يعترف بخطاياها (وقد كان هذا مما أخاف نيرون وأفقده شجاعته) ، وأن يصوم بعض الوقت عن أنواع خاصة من الأطعمة ، ويستحم فى الخليج ليتطهر من الدنس الجسمى والروحي ، ثم يقرب القرزبان ، وهو فى العادة خنزير . وفى عيد دمتر كان الطلاب المبتدئون يندبون معها اختطاف ابنتها إلى الجحيم ، ويقتصرون فى أثناء حزنهم هذا على تناول الكعك المقدس ، وخليط رمزى من الدقيق والماء والنعناع . وفى الليلة الثالثة تعرض مسرحية دينية تمثل بعث پرسفونى ، ويعد الكاهن الذى يقوم بالخدمة الدينية كل من تطهرت روحه بأن يبعث كپرسفونى بعثاً جديداً^(٩٥) . وقد صورت الطائفة الأرفية ، متأثرة بالآراء الهندوكية أو الفيثاغورية ، موضوع هذه الطقوس فى جميع الأراضى اليونانية ، فقالت إن الروح تجسب فى طائفة متسلسلة من الأجساد المذنبه ، وإن

في مقدورها أن تنطلق من هذا التجسد الثاني المشين بأن تسمو حتى تتحد
بمخاضها هياميا بديونيشس . وكان الإخوان الأرفيون في اجتماعهم يشربون دم
ثور يضحون به للمنقذ الذى يكفر عن خطاياهم ويوحدون بينه وبين
هذا المنقذ . وكان الاشتراك الجماعى فى تناول الطعام والشراب المقدسين
من المظاهر الكثيرة الحدوث فى أديان البحر الأبيض المتوسط ، وكثيراً
ما كان أهل هذه الأديان يعتقدون أن هذا الطعام ستحل فيه بهذا التقديس
قوى الإله ، ثم تنتقل منه بطريقة سحرية خفية إلى المشتركين فى تناوله (٩٦)

وكانت الشيع الدينية كلها تؤمن بالسحر ، فقد نشر المحوس فنههم هذا
فى أنحاء الشرق وسما الشعوذة القديمة باسم جديد ؛ وكان عالم البحر الأبيض
المتوسط غنياً بمن فيه من السحرة ، وصانعى المعجزات ، والمتنبئين ،
والمنجمين ، والزهاد القديسين ، ومفسرى الأحلام العلميين . وكانت كل
حادثة غير عادية تتخذ نذيراً إلهياً بما سيقع من الحوادث فى المستقبل ، وأصبح
لفظ أسكسيس Askesis ، الذى كان معناه عند اليونان تدريب الجسم تدريباً
رياضياً ، يقصد به وقتئذ إخضاع الجسم لسطان الروح ؛ فكان الناس
يضربون أنفسهم بالسياط ، ويبترون أعضائهم ، ويجوعون أنفسهم ، أو يقيدون
أجسامهم بالسلاسل فى مكان واحد ؛ ومنهم من كانوا يموتون نتيجة لهذا
التعذيب أو الحرمان (٩٧) الذاتى . ولجأ جماعة من اليهود وغير اليهود رجلاً
ونساء إلى الصحراء المصرية القريبة من بحيرة مريوط . يعيشون فيها منفردين فى
صوامع وبيع ، ويحرمون على أنفسهم جميع العلاقات الجنسية ، ويجمعون
فى يوم السبت للصلاة الجامعة ويسمون أنفسهم معالجى النفوس
(Therapeutae) (٩٨) . وقال الملايين من الناس إن الكتابات المغزوة إلى
أرفيوس ، وهرمس ، وفيثاغورس ، والعرافات ومن إليهم قد أملاها
أو أوحى بها إله من الآلهة . وكان الوعاظ الذين يدعون أن الوحي قد
هبط عليهم من السماء يجوبون الأقطار متنقلين من مدينة إلى مدينة ،

يعالجون الناس بما يبدو في نظرهم أنه من المعجزات . من ذلك أن الإسكندر الأيونتيكي Alexander of Abonoteictus قد درب أفعى على أن تخطى رأسها تحت ذراعها ، وتقبل أن يثبت في ذيلها قناع شبيه بوجه الإنسان ، ثم أعلن أن الأفعى هي الإله أسكليبيوس ، وأن هذا الإله قد جاء إلى الأرض لينبئ الناس بما سوف يقع في المستقبل ، وقد استطاع أن يجمع ثروة طائلة بتفسير الأصوات الحادثة من الأعشاب التي يضعها في رأسها المستعار (٩٩) .

وأكبر الظن أنه كان إلى جانب هؤلاء المشعوذين آلاف من المبشرين المخلصين المؤمنين بالعقائد الوثنية . وقد صور فيلوستراتس في أوائل القرن الثالث صورة مثالية لأحد هؤلاء المبشرين في كتابه حياة أبولونيوس النيباتالي of Tyana ، فوصفه بأنه حين بلغ السادسة عشرة من عمره قيد نفسه بقيود الإخوان الفيثاغوريين الصارمة ، فحرم على نفسه الزواج ، وأكل اللحم ، وشرب الخمر ، ولم يخلق لحيته قط ، وامتنع عن الكلام خمس سنين كاملة (١٠٠) ، ووزع المال الذي تركه له والده على أقاربه ، وأخذ يطوف ، كما يطوف الرهبان المعدمون ، في فارس ومصر ، وغربي آسية ، وبلاد اليونان ، وإيطاليا ؛ وأتقن علوم الجوس ، والبراهمة ، والزهاد المصريين . وكان يزور هياكل الأديان على اختلافها ، ويدعو كهنتها إلى الامتناع عن التضحية بالحيوان ، ويعبد الشمس ؛ ويؤمن بجميع الآلهة ، ويعلم الناس أن من ورائها كلها إله واحد أعلى لا يحيط به العقل . وكانت حياة التقى وإنكار الذات التي فرضها على نفسه مما جعل أتباعه يدعون أنه ابن إله ، أما هو فلم يكن يصف نفسه بأكثر من أنه ابن أبولونيوس . وتعزول إليه الروايات المتواترة كثيراً من المعجزات ؛ فقد كان الناس يقولون إنه يمر من خلال الأبواب المغلقة ، ويفهم جميع اللغات ، ويطرد الشياطين ، وإليه رفع بنتا من بين الأموات (١٠١) . لكنه كان في واقع الأمر فيلسوفاً أكثر منه ساحراً ،

يعرف الأدب اليوناني ويحبه ، ويدعو إلى مبادئ أخلاقية بسيطة ولكنها صارمة . وكان يتوسل إلى الآلهة بقوله : « علميني ألا يكون لي إلا القليل وألا أرغب في شيء » . ولما سأله أحد الملوك أن يختار لنفسه هدية يهديها إليه . أجابه بقوله : « الفاكهة اليابسة والخبز (١٠٢) » . وكان يبشر بتجسد الروح بعد مفارقتها بالجسد ، ولهذا أمر أتباعه ألا يؤذوا مخلوقا حيا ، وأن يمتنعوا عن أكل اللحم ؛ وحضهم على تجنب العدا ، واغتيال الناس ، والغيرة ، والكراهية ؛ ومن أقواله لهم : « إذا كنا فلاسفة ، فلن نستطيع أن نكره . بنى جنسنا » (١٠٣) . ويقول فيلوستراتس إنه « كان في بعض الأحيان يناقش المبادئ الشيوعية ويعلم الناس أن من واجبهم أن يعين بعضهم بعضاً » (١٠٤) . ولما اتهم بأنه يثير نفق الفتنة ، ويعلم الناس السحر ، جاء طائعا إلى رومة ليبرئ نفسه أمام دومتيان من هاتين التهمتين ، فسجن ، ولكنه فر من سجنه ومات حوالي سنة ٩٨ م . بعد أن عمر طويلا . وادعى أتباعه أنه ظهر لهم بعد موته وأنه رفع بعدئذ إلى السماء (١٠٥) .

ترى ما هي الصفات التي جعلت نصف رومة ونصف الإمبراطورية ينضويان تحت ألوية هذه الأديان الجديدة ؟ من هذه الصفات ما تنطوى عليه هذه الأديان من عدم التفرقة بين الأجناس والطبقات ؛ فقد كانت تقبل بين أتباعها خللا من جميع الأمم ، وجميع الأحرار ، وجميع الأرقاء . ولا تلتقي بالا إلى ما بين الناس من فروق في الأنساب أو الثراء ، وكان هذا من أسباب السلوى لهؤلاء الأتباع . وقد بنيت هياكلها بحيث تتسع لكل من يؤمها من الخلائق العباد وللإله المعبود . وكانت سيبيل وإيزيس لإلهتين أمينتا كلتين ذائقتا مرارة الحزن كما ذاقته ملايين الأمهات الناكلات ، وكان في مقدورهما أن تدركا ما لا تستطيع أن تدركه الآلهة الرومانية - ألا وهو فراغ قلوب المغلوبين . إن الرغبة في العودة إلى أحضان الأم أقوى من غريزة الاعتماد على الأب ، واسم الأم هو الذي يخرج

من تلقاء نفسه إلى الشفتين إذا ما صادف الإنسان سرور عظيم أو حلت به كارثة أليمة . ومن أجل هذا كان الناس رجالهم ونساؤهم على السواء يجدون لهم سلوى وملجأ في لايزيس وسيبيل ، بل إن العابد التي في بلاد البحر الأبيض المتوسط في هذه الأيام يلجأ إلى مريم أكثر مما يلجأ إلى الأب أو الابن ، وإن الصلاة المحببة التي يرددتها أكثر من سائر الصلوات هي الصلاة التي لا يوجهها إلى العذراء بل إلى الأم التي يورك فيها بمن ولدته من بطنها .

ولم تكن قوة الأديان الجديدة مقصورة على أنها أعمق أثراً في قلوب الناس بل كان من أسباب قوتها فوق ذلك أنها أعظم أثراً في خيال الناس وحواسهم لما فيها من مواكب ، وترانيم ، تنقل من الحزن إلى السرور ، وما تحويه من طقوس ذات رموز تنطبع في الخيال وتبعث الشجاعة من جديد في النفوس التي أنقلتها الحياة الرتيبة المملة . ولم تكن مناصب الكهانة الجديدة يملؤها ساسة يرتدون الثياب الكهنوتية من حين إلى حين بل كان يشغلها رجال ونساء من كافة الطبقات ، يتدرجون فيها من المبتدئ المتكشف الزاهد إلى الخادم الديني الذي لا يتقطع عن مواساة الناس . وكان في مقدور الروح التي تدرك ما ارتكبه من ذنوب أن تتطهر منها ؛ وكان يستطيع في بعض الأحيان شفاء الجسم الذي أنهكته العلة ، بكلمة أو طقس موح ؛ وكانت المراسم السرية الخفية التي يمارسونها ترمز إلى ما يتردد في صدور الناس من رجاء في أن يتغلبوا على كل شيء حتى الموت نفسه .

لقد سما الناس في وقت من الأوقات بما كانوا يتوقون له من عظمة وخلود ، فجعلوهما مرتبطين بمجد الأسرة والقبيلة والإبقاء عليهما ، ثم انتقلوا بهما إلى مجد الدولة التي كانت من صنعهم والتي هي نفوسهم مجتمعة . أما في الوقت الذي نتحدث عنه فكانت الحدود الفاصلة بين القبائل تنوب في حركة السلم الجديدة ، ولم تكن الدولة الإمبراطورية تعبر إلا عن الطبقات العليا السائدة ، ولم تكن تمثل

جماهير الشعب التي لا حول لها ولا طول . وكان على رأس الدولة ملكية مطلقة تحول بين المواطن وبين اندماجه فيها واشراكه في أعمالها ، وكانت تخلق بعملها هذا الفردية في أسفلها وتشيعها بين الدهماء من السكان . وكان ما في الأديان الشرقية وما في المسيحية . التي أخذت منها خلاصتها ثم امتصتها وقضت عليها ، من وعد بالخلود الشخصي ، وبالسعادة الدائمة بعد حياة المذلة ، والفاقة ، والمحن ، والكدر ، كان هذا كله إغراء لا تستطيع الدهماء مقاومته . ولاح أن العالم كله أخذ يأتمر ليمهد السبيل إلى المسيح .